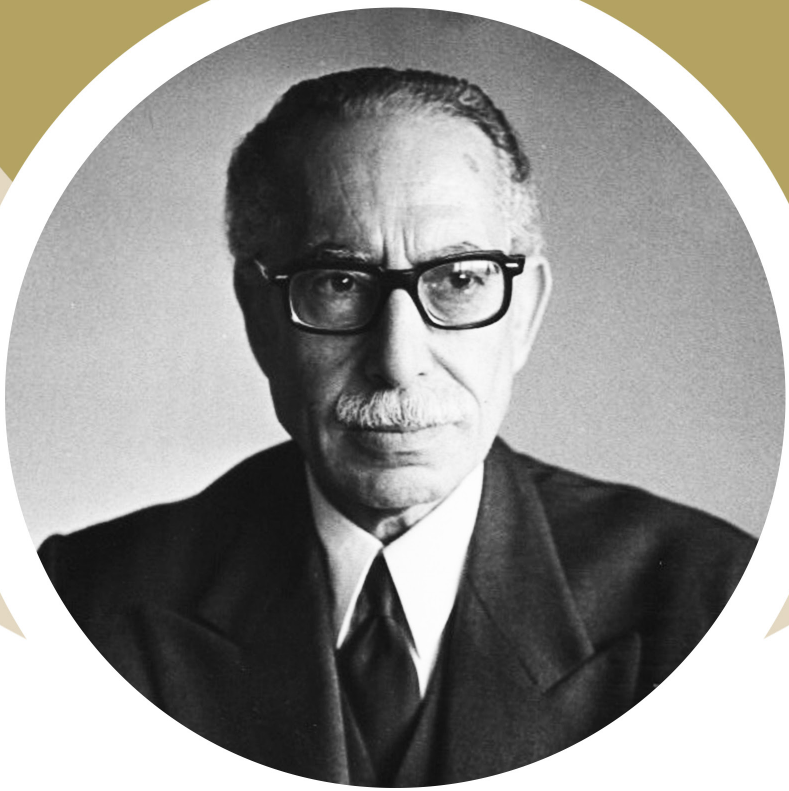

سر المنتحرة

توفيق الحكيم

سر المنتحرة

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

سر المنتحرة

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٢٧٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	٢٩
الفصل الثالث	٣٩
الفصل الرابع	٥٧

الفصل الأول

(حجرة طبيبٍ فَخْمة تنِمُّ عن نِعمةٍ ويَسار ... الدكتور محمود عزمي جالسٌ إلى مكتبه يكتُب، وهو قد جاوَزَ الخمسين، غير أنه محتفظٌ بنشاطه واعتدال قامته ... يدخُل الممرِّض سالِم.)

محمود: سالم ... أقفل باب العيادة ولا تفتح لمخلوقٍ حي.
سالم: وإذا حضَرَت الآنسةُ التي ...
محمود: إذا حضَرَت الآنسةُ التي ... فلا تفتح! ... فهِمْت؟
سالم: والمَرضى؟
محمود: المَرضى والأصحاء سواء ... مفهوم؟
سالم: مفهوم ... (بصوتٍ خافت) أبدًا غير مفهوم.

(يخرج سالم، ويستأنف الطبيب الكتابة.)

(يُدوِّي جَرَس التليفون على المكتب.)

محمود (في التليفون)**:** ألو، أنا الدكتور محمود عزمي، نَعَم يا عزيزي ... المحاضرة في تمام السادسة، إذًا سكَتَ عنِّي الباب والتليفون، أنا أكتب الآن الجزء الأخير منها ... ماذا؟ ... آه طبعًا ... واثقٌ كلَّ الثقة ... أنا أُبالغ في تقدير أثر السنِّ على النَّفْس والجسم؟ ... لا بأس ... انتظر ... عمَّا قليلٍ ربما أقنعناك ... إلى المُلْتَقى.

(يضع السماعة ... يُدوِّي جَرَس الباب.)

الآن دور الباب.

سالم (يدخُل): سيدي الدكتور.
محمود: نعم؟ ... عَارِف.
سالم: الحلَّاق.
محمود: فتحتَ له؟
سالم: طبعًا ... اليوم ميعاده.
محمود: أَلَمْ أقُل لك «لا تفتحْ لمخلوقٍ حي»؟
سالم: الحلَّاق يا سيدي ليس ...
محمود: ليس بمخلوقٍ حي؟!
سالم: أقصد ليس من الزائرين ولا المَرضى.
محمود: أوَلا تعرف أنَّ الحلَّاق ألعنُ من الزائرين والمَرضى؟ ... مَن يستطيع اليوم أن يُضيِّع عليَّ ساعة المحاضرة غير حلَّاق؟ ... اطردْهُ في الحال.
سالم: سيدي الدكتور لم يحلِقْ ذَقَنه من ثلاثة أيام.
محمود (وهو يكتب): في مقدوري أنْ أعيش أيضًا يومًا آخر بدون أن أحلِق ذَقَني.
سالم: أربعة أيامٍ بدون حِلاقة؟!
محمود: أتستطيع أنْ تُخبرني ما الذي يجري في الفَلَك إذا كانت ذَقَني لا تُحلق أربعة أيام.
سالم: رأسُك أيضًا يا سيدي الدكتور قد طال شَعرُه واستحقَّ المِقَص.
محمود: بل لسانُك هو الذي استحقَّ المِقَص.
سالم: سيدتي أوصتْني مرةً أنْ أذكِّر سيدي بمثل هذه الأشياء.
محمود: لقد ذكَّرتْني وبلَّغتْني وقُمتُ بالواجب وزيادة ... استرحتَ الآن واطمأنَّ قلبُك؟
سالم: ولكن يا سيدي الدكتور ...
محمود: ألَا تريد أنْ تتركني أكتُب؟
سالم: أوَينصرف الحلَّاق هكذا بخُفَّي حُنين؟!
محمود: ينصرف برأسك وذَقَنك؛ إذا شئتَ فلْيحلق لك أنت.

(يخرج سالم.)

(يستمر الدكتور في الكتابة.)

سالم (يعود مُسرِعًا): سيدي! ...
محمود: ماذا جرى أيضًا؟
سالم: وأنا أهُمُّ بغَلْق الباب خلْفَ الحلَّاق وقَفَ المِصعد أمام بابنا ولمحتُ فيه سيدة ...

(جرس الباب يَدُق.)

ها هي ...
محمود: صه ... لا تُبدِ حَراكًا ... إنَّا لَسْنا هنا ... لا أحد هنا.

(لحظة صمتٍ ... ثم يعود دقُّ الجَرَس في شِدَّة.)

سالم: الدقُّ يشتدُّ.
محمود: لا ضَرَر.
سالم: أخاف أن ينزعج جيراننا في الطابق.
محمود: انزعاجهم خيرٌ عندي من انزعاجي.

(الطَّرق يزداد بشِدَّة.)

محمود (لسالم): قفْ مكانك ... إلى أين؟!
سالم: أسْتَطْلع على الأقل من القادم.
محمود: إيَّاك وفتْحَ الباب.

(الخادم يخرج ... ولا يَلبَث أن يعود مُسرِعًا بعد لحظة.)

سالم: فتحتُ.
محمود: لا أفلحتَ! ... قبَّحك الله مِن مُمرِّض!
سالم (كمَنْ يلهث): تلك سيدتي بالباب!
محمود (يرفع رأسه): سيدتُك؟ ... وما أتى بها الساعة؟!
إقبال (من الخارج بعد لحظة): ما شاء الله! ... ما معنى إغلاق باب العيادة على هذه الصورة؟!

(ثم تدخل ... وهي سيدةٌ في الخامسة والثلاثين، ذات مَلاحَةٍ وأناقةٍ وثيابها ثمينةٌ من أحدث طراز ... وهي تُعنى كثيرًا بشأنها.)

إقبال (لسالمٍ دون أن تلتفتَ إلى محمود): مَن معه هنا؟

(تبحث بعينيها في أنحاء المكان، تتَّجه إلى الستائر، وتبحث خلفها.)

محمود (في هدوء): تبحثِينَ عنِّي؟!

إقبال: أجبْني أولًا بصراحة، هل أنت وحدك هنا؟

محمود (باسِمًا في شبه تهكُّم وهو يُدير عينيه باحثًا في أنحاء الحُجْرة): أنا؟ ... لستُ أدري ... لقد رأيتِ بعينَيك النجلاوين.

إقبال (وهي تخلع قُفَّازها الثمين الأنيق): هذا غريب.

محمود: أغرب منه قدومك الآن إلى محل عملي على هذه الصورة البوليسية!

إقبال: أيسوءك قدومي إلى محل عملك الآن؟!

محمود: بلا سبب؟

إقبال: لا شيء في الدنيا بلا سبب.

محمود: ما هو السبب؟ ... جمال عادتْ إليه النزلة المَعَوية؟

إقبال: لا ... جمال في صحةٍ جيدة، ولو كان مريضًا لاستدعيتُ له الدكتور أسْعَد كالمعتاد ... وكفى.

محمود: إذن ما السبب؟ ... هل رجَعَ من المدرسة وتلقَّى دَرْسه الخاص؟

إقبال: نعم ... وقد غادرتُه مع مدرِّسه الشيخ عبد العظيم.

محمود (ينظر إليها فاحصًا): وأنتِ صحتك كذلك جيدةٌ فيما أرى ... وإنكِ لغايةٌ في الرشاقة، وثوبك غايةٌ في الأناقة.

إقبال (في برود): نعم ... غايةٌ في الأناقة والرشاقة.

محمود: إذن ما الذي جرى في الفَلَك؟

محمود (في تهكُّم): ذَقَني لم تُحلق منذ ثلاثة أيام.

إقبال: أتريد أن تعرف ما الذي جَرَى في الفَلَك؟

إقبال: لا شأن لي اليوم بذَقَنك.

محمود: اليوم؟

إقبال (في تحامل): الرَّجل الكَهْل لا تنفع فيه زينة.

محمود (في هدوءٍ وابتسام): هذا رأيي دائمًا ... وأنتِ تعلمين أني لم أزعم يومًا غير ذلك (ويشير إلى ملابسه البسيطة وإلى شأنه المهمل).

إقبال (تستمر): مَن وخَطَ أغلبَ شَعْره الشيبُ لن ينفع فيه خِضاب.

محمود: أنتِ تعلمين كذلك أني لم أفكِّر يومًا في خِضاب شعري.

إقبال (تستمر): مَن عُمْره اليوم قد جاوز الخمسين ...

محمود (باسمًا): خريفًا.

إقبال: نعم ... خريفًا ... أي يكبُرني بتسع عشرة سنة.

محمود (في تسامُح): في الحساب غلطةٌ صغيرة يا عزيزتي ... لكن لا بأس.

إقبال (تستمر): ولقد مضى على زواجنا خمسة عشر عامًا.

محمود: هذا صحيح ... كل هذا صحيح ولا نِزاع فيه ... ثِقي بذلك ... وإذا كنتِ قد تجشَّمتِ وجئتِ من البيت اليوم إلى هنا كي تُفضي إليَّ بهذه المعلومات الخطيرة؛ فأنتِ ولا ريب قد أضعتِ هذا العصر سُدًى، وحَرَمتِ نفسكِ النزهة والزيارات وبهجة الدنيا ومتاعها.

إقبال: هذه المعلومات الخطيرة أنت الآن تتجاهلها.

محمود: مَن أدراكِ؟

إقبال: هذه العيادة المُغلَقة على نحوٍ مريب، ووجودك هنا تنتظر ...

محمود (باسمًا): تَشريفَكِ.

إقبال: بل مَن هو خيرٌ منِّي.

محمود: المَرضى.

إقبال: أتستطيع أن تُخبرني أيَّ طبيب يُغلق بابه مثلك؟

محمود: نحن يا عزيزتي أغنياء ... ولسنا في حاجةٍ إلى المَرضى ... وأنا كما تعلمين طبيبُ استشارة، لا طبيبُ علاج.

إقبال: نعم ... أغنياء حقيقة ... وهذه الثروة الكبيرة هي التي تُطمع فيك بعضهم ... ولا تظنَّ شيئًا غير ذلك.

محمود: ثِقي أني لا أظنُّ شيئًا غير ذلك.

إقبال: مهما قالت لك امرأة ...

محمود: ليس لي كلامٌ مع النساء.

إقبال: إني أخشى أن يلعَبْن بلبِّك.

محمود: اطمئني ... إني أعْرَفُ بهنَّ منكِ.

إقبال: لو كنتَ تعرفُهُن لَمَا ضحكتْ منك هذه الفتاة.

محمود: أيُّ فتاة؟

إقبال: أتحسب شيئًا يَخفى في هذا البلد؟

محمود: هذه الفتاة مجنونة، وقد أخبرتُكِ بأمرها من أول يوم ... ولو أنك أحسنتِ بي الظنِّ قليلًا لفهمتِ أني إنما أُغلق بابي على هذه الصورة حتى لا تدخل هذه الفتاة.

إقبال: إذن كيف انتشر الخبر؟

محمود: أيُّ خَبَر؟

إقبال: أنك ستقترن بها.

محمود: أقترن بها؟! ... لماذا؟ ... وأنتِ أين تذهبين؟

إقبال: تُطلِّقني ... أو تُبقيني وتُدخلها ضَرَّة عليَّ!

محمود: أَبعدَ هذا الزمن؟ ... أوَتُصدِّقين؟

إقبال: وإذا حدَثَ ذلك؟

محمود: يحدُث في كهلٍ غافل ... فهل أنا كذلك في رأيكِ؟

إقبال: سمعتُ في البيوت همسًا بأنَّ هذه الفتاة تُحبُّك، وتُقْسِم أنها لن تتزوج سوى محمود!

محمود: محمود؟!

إقبال: نعم ... بهذا الاسم ... محمود أو تموت.

محمود (في تهكُّم)**:** مسكينة!

إقبال: مع أنَّ لها ثلاث شقيقات متزوجات من رجالٍ مُحترَمين أصغرَ منك سنًّا، فهل حسِبَتْك هذه البَلهاءُ لُقَطَة؟! ... ثقْ أنَّ شقيقاتها سوف يَهزَأْن بها ويُعيِّرْنها بالكارثة التي بلاها بها الزمن في شخصك.

محمود: مؤكَّد.

إقبال: هذه الفتاة ولا شكَّ حمقاءُ بلهاءُ عمياء.

محمود: بدون شك.

إقبال: ومع ذلك مَن يدري سِرَّها؟ ... لستُ أفهم ماذا أعجبها فيك؟ ... فلا شباب عندك، ولا جمال، ولا رشاقة، ولا أناقة، ولا لُطف، ولا ظُرف، ولا حلاوةَ كلام، ولا خفةَ دم، ولا ...

محمود (مقاطِعًا)**:** إلى آخره ... إلى آخره.

إقبال: حقيقةً ليس عندك مُطلَقًا شيءٌ يُحَب.

محمود: عندي شيءٌ يُحَب.

إقبال: ماذا عندك يُحَب؟

محمود: زوجتي المحبوبة التي هي أنتِ.

إقبال (مستمرَّة): دَعْنا من هذا المَلَق الرخيص ... أنت لا شيء يُحبُّ فيك إلا ثروتك ... هذا كلُّ ما لديك.

محمود: هذا ما يشفع لي عندكِ أنتِ على الأقل.

إقبال: وعند تلك الفتاة.

محمود: يُدهشني مع ذلك أنها ليست من أسرةٍ فقيرة.

إقبال: وما يمنع؟

محمود: صدقتِ، لا مانعَ مطلقًا عند النساء.

إقبال (بعد لحظة): ومع هذا كله هبْ أنها كانت مغفَّلةً وأحبَّتك.

محمود: وماذا تُريدِين أن أصنع للمغفَّل؟

إقبال: هبْ أنَّها استطاعت اللَّعب بلبِّك هذه الفتاة.

محمود (يَعبِس فجأةً، ويعود إلى قلمه): إقبال!... لقد نفِدَ صبري أرجوكِ ... أرجوكِ ... لا تُضيعي وقتي أكثر من ذلك بهذا الكلام ... إنَّ لديَّ الساعة عملًا أهمَّ عندي من الحديث في اللبِّ والحُب.

إقبال: محمود ... زوجي ...

محمود: سبحان الله! ... ما الذي جرى لكِ؟

إقبال: أنت ربُّ أسرةٍ تعيش الآن هانئة.

محمود: ربُّ أسرة، وزوج، وأب، وكل ما تُريدِين ... إني أعرف واجباتي أضعاف ما تعرفين.

إقبال: اذكُر أيَّ فضيحةٍ تلحَق بي عند الناس لو أنك أقدَمتَ على ذلك.

محمود: أهذا كلُّ ما يُروِّعك من الأمر؟

إقبال: هذا ليس هيِّنًا؛ أن يُقال في مثل بيئتنا إنك تزوجتَ عليَّ أُخرى، ولم أزَلْ في مُقتَبَل العمر.

محمود: ثِقي قليلًا برَزانة هذا الكَهْل الذي هو أنا.

إقبال: ومَن يضمن لي هذه الرَّزانة؟

محمود: ماضيَّ الطويل الذي لا غبار عليه.

إقبال: لستُ أُنكر عليك ماضيك؛ وإني حقيقةً أشهد لك بالعقل الرصين طولَ تلك السنين ... ولكن الإنسان في ساعةٍ واحدة قد ينسى كلَّ شيء ويرتكب حماقةً لا تُغتفَر.

محمود (في اقتناع): هذا خطأٌ مُبِين.

إقبال: أعرِفُ مع ذلك أشخاصًا وأسمع عن أُناسٍ كانوا مثلك.

محمود: ليس مثلي أحدٌ من الناس.

إقبال: كلُّ الرجال سواء.

محمود: إني رَجلٌ كَهْل، خَبِر الأشياء، وزهِدَ في الدنيا، وإنَّ للسنِّ قانونه.

إقبال: لستُ أعترف بقانونٍ لمثل هذه الأشياء.

محمود: بالطبع ... باعتبارِكِ امرأةً لا يُمكن أن تعترفي بحُكم السنِّ.

إقبال: نعم ... امرأة تحكم بشعورها دائمًا، وهو وحده أصدق من كل قانون.

محمود: لو أنَّ في قاعة المحاضرات اليوم متَّسَعًا لوقتكِ الثمين لطلبتُ إليكِ الحضور كي تعرفي ... سأتحدَّث عن علاقة النفس البشرية بالزمن والسنِّ.

إقبال: تريد منِّي أيضًا أن استمع إلى محاضراتك ... كلَّا كلَّا يا سيدي العزيز ... إنَّ خَيَّاطتي تنتظرني منذ ساعة.

محمود (ناظرًا إليها): خيَّاطتُكِ طبعًا.

إقبال: نعم خيَّاطتي ... لماذا ترمُقني بهذه النظرة؟

محمود: أتساءل لَمن تلبسين وتتزيَّنين؟

إقبال: هذا سؤالٌ لا يُلقى على امرأة.

محمود: أنتِ ربَّة أسرةٍ وزوجةٌ وأمُّ غلام جاوَزَ السنوات العشر.

إقبال (كاظمة): أنتَ لا تجهل أني صغيرةُ السنِّ.

محمود (في تهكُّم خفي): نعم ... إلى الأبد ... لا أجهَلُ ذلك.

إقبال (تنفجر غاضبة): لا شأن لك بي ولا بسنِّي ... إني ما جئتُ لأتحدث في سنِّي ... حدِّثني أنت عن نفسك، وعن سنِّك، وعن شيبك وعن قُبحك وثِقَل دمك!

محمود: عُدْنا إلى الكلام في ثِقَل دمي!

إقبال: ما لك والغَيْر؟! ... تكلَّمْ في شأنك أنت.

محمود: لا تغضبي ... هوِّني عليكِ ... ليفترَّ ثغْرُكِ عن الابتسام.

إقبال: انظر في المِرآة إلى هذه التجاعيد حول عينَيك.

محمود: إني معترفٌ أنكِ صغيرةُ السنِّ دائمًا ... وأنَّ كلَّ قوانين السنِّ والزمن لا تنطبق عليكِ، فهل من جُناح عليَّ في هذا الاعتراف؟

إقبال (في غضب): سأنصرف.

محمود: بهذه السرعة.

إقبال: أين سيارتي؟

محمود (في تهكُّم)**:** أتبحثين عنها في هذه الحُجْرة؟!

إقبال (تتَّجه إلى النافذة)**:** بل في الشارع. إني لا أراها من هذا العلوِّ الشاهق.

إقبال (تتحرك نحو الباب)**:** ولكن ... ولكنني لا أستطيع الاطمئنان إلا إذا ضمنتَ لي ...

محمود: أتعودين إلى مثل هذا الموضوع؟!

إقبال: كلمةٌ واحدة هي الأخيرة: اضمَنْ لي كتابةً كي أطمئنَّ.

محمود: أضمَنُ لكِ ماذا؟

إقبال: أنك لن تفعل ذلك.

محمود: لن أفعَلَ ذلك.

إقبال: كلَّا ... اضمَنْ لي كتابةً (تقترب من المكتب وتأخذ ورقةً وقلمًا) ها هي الورقة، وها هو القلم ... اكتُب.

محمود (يتناول منها الورقة والقلم)**:** أكتُبُ ماذا؟ ... اللهم رُحْماك وعفوك ورضاك!

إقبال (تُمْلي)**:** اكتُبْ ... أتعهَّد أنا محمود عزمي بأني لن أتَّخذ لي زوجةً غير زوجتي إقبال ما حييتُ.

محمود: ألَا تَثِقين بي؟ ... ألَا يوجد بيننا ثقةٌ متبادَلة؟

إقبال: اكتُب.

محمود: يا لِعقول النساء! ... (يكتب) «أتعهَّد أنا محمود عزمي ... إلخ إلخ.»

إقبال: اكتُبْ أيضًا: «وإذا فعلتُ لأيِّ سبب من الأسباب أدفع لها فورًا مبلغَ خمسين ألفَ جُنيه نَقدًا.»

محمود: خمسين ألف جنيه؟

إقبال: أتستكثر المبلغ؟

محمود: بالعكس ... هذا ثمنٌ بخْسٌ تبيعينني به.

إقبال: وقِّع بإمضائك في ذيل الورقة.

محمود: الإمضاء والتاريخ وكل ما تطلُبين ... ألكِ طلبات أخرى أو أوامر؟

إقبال: كلَّا ... هاتِ الورقة (تأخذ الورقة، وتضعها في حقيبة يدها التي تحملها) الآن أنت ...

محمود: الآن أنا حر؟! ... أليس هذا ما تقصدين؟
إقبال (تتحرك إلى الباب)**:** إلى المُلتقى.
محمود (وهو يتبعها بنظره إلى أن تخرج)**:** إلى الملتقى القريب يا سيدتي ... أف!

(ثم يعود إلى المكتب ويجلس إليه، ويستأنف الكتابة.)

سالم (يدخل)**:** سيدي الدكتور!
محمود (وهو يكتب دون أن يرفع رأسه)**:** ماذا تريد أيضًا؟
سالم: إذا طُرق الباب مرةً أخرى ...
محمود (يرفع رأسه مُنتهِرًا)**:** اخرس! ... لديَّ أعمالٌ أخرى ... أتظلُّ طول اليوم تتكلم في طَرْق الباب وفتحه؟!
سالم: لا أفتح ... فهمت ... (في صوتٍ خافت) بل واللهِ لم أَفْهَم.

(يخرج ... وما يكاد يختفي حتى يُطرَق الباب.)

(محمود يرفع رأسه وينظر في الساعة، ثم يعود إلى الكتابة.)

(سالم يَظهر حائرًا بباب الغرفة فيَلْقى سيده مُشتغِلًا بالكتابة غيرَ آبهٍ؛ فيرتدَّ على أعقابه ... الطَّرق يشتد كثيرًا، ثم يُسمع صوتُ زجاجٍ يُكسر وينهار على الأرض، وآنسة صاخبة في صوتٍ عصبي.)

(يستمر الطَّرق في فتراتٍ دون مُجيبٍ، ثم يشتدُّ إلى حدٍّ مُزعِج.)

سالم (صائحًا في الخارج)**:** انتظري ... انتظري ... إنَّ الله مع الصابرين.
الآنسة (صائحةً في الخارج)**:** افتحْ قبل أن أحطِّم بقية الباب.
سالم (في الخارج)**:** الدكتور ليس هنا.
الآنسة (في الخارج)**:** أنت كاذبٌ ... إنه هنا.

(ثم يُسمع صوتُ الباب يُفتح ويُغلق.)

سالم (يُسرع داخلًا)**:** فتحتُ يا سيدي ... أو على الأصح ...
محمود (وهو يكتب غيرَ آبهٍ ناظرًا إليه)**:** بلغنا ما حَصَل.

عزيزة (وهي الآنسة، تدخل برغم سالم، وهي ابنة الثمانية عشر ربيعًا، جميلةٌ أنيقة ... تنظر إلى محمود وتقول لسالم): ليس هنا، أمَّا هذا فتِمثاله؛ تمثالٌ رخاميٌّ بديع ... أليس كذلك؟!

محمود (وهو يكتب دون أن يرفع رأسه): رُح يا سالم وأحضِرْ فنجانَين من القهوة من غير كلام.

(تجلس على مقعد في صمتٍ تنتظر أن يبدأ محمود الحديث.)

(محمود بعد لحظةٍ يرفع رأسه أخيرًا، ولكن كي يحكَّ ذَقَنه بالقلم مفكِّرًا.)

عزيزة (نافدةَ الصبر تتمَلْمَل): وأخيرًا؟!
محمود (يلتفت إليها): أتُكلِّميننى أنا يا سيدتي؟
عزيزة (في كَظْم): ما معنى كلِّ هذا؟!
محمود: كل هذا ... ماذا؟!
عزيزة (تحاول الهدوء): هذه الأبواب المُغلَقة، كأنها أبواب قلعةٍ محصَّنة!
محمود: أكانت الأبواب مُغلَقة؟
عزيزة: ألَمْ تسمعْني أحطِّمها تحطيمًا؟
محمود: أوَحطمتِها تحطيمًا؟ ... برافو! ... أُهنِّئُكِ على هذا الفتح المبين.
عزيزة (في كَظْم): يُدهِشني أنك تعلم كلَّ العلم أني سأَجِيء في هذا الوقت، ومع ذلك ...

(لحظة صَمْت.)

محمود (بدون أن يلتفت إليها): كيف صِحَّتكِ اليوم؟
عزيزة: سيئة.

(محمود يرفع رأسه ويحدِّق فيها بنظرةٍ فاحصة.)

عزيزة: ألَا تصدِّقني؟
محمود (وهو ينظر إليها فاحصًا متهكِّمًا): حقيقةً ... إنَّ حالتكِ غايةٌ في السوء ... في مرحلة الخطر!
عزيزة: لو تعلم كم أُحسُّ الضَّعْف.

محمود: حقًّا ... ضَعفٌ شديد ... وصَلَ إلى حدِّ القدرة على أن تحطِّمي باب الطبيب تحطيمًا.

عزيزة: لا تتهكَّمْ ... أنت تراني شاحبةَ الوجه.

محمود: القمر كذلك شاحب الوجه.

عزيزة (مُبتسِمة)**:** أترى وجهي كوجه القمر؟

محمود: أليس لديكِ مِرآة؟ ... المِرآة لا تُفارق حقيبةَ امرأة ... سَلِيها فهي عندكنَّ أصدَقُ من الطبيب.

عزيزة (تلتفت إلى مرآة الحائط)**:** لستُ أرى في المِرآة ما تقول.

محمود: ليست هذه غلطتي.

عزيزة (تَنظُر إلى محمود)**:** إني أرى وجهك أنت أكثرَ شبهًا بالقمر.

محمود (في صدمة)**:** أستغفر الله العظيم!

عزيزة: ثِق أنَّ وجهك أنت ...

محمود: وجهي أنا.

عزيزة: أنضَرُ من وجهي!

محمود: وجهي أنا أنضَرُ من وجهكِ؟!

عزيزة: بالتأكيد.

محمود (يُشير بإصبعه إلى وجهه)**:** وجهي هذا تقصدين؟

عزيزة: وهل لك وجهٌ غيره؟!

محمود (يُشير إلى وجهه ثم إلى وجهها)**:** وجهي هذا أحسنُ من وجهكِ هذا؟!

عزيزة: نعم.

محمود: سامحكِ الله يا سيدتي ... أخجلتِ تواضُعي أكثرَ ممَّا ينبغي يا سيدتي.

عزيزة: ألَا تعتقد هذا؟

محمود: اعتقدتُ الآن فقط أنكِ مريضةٌ حقيقةً يا سيدتي.

عزيزة: قلتُ لك مِرارًا لستُ أحبُّ لفْظَ «يا سيدتي».

محمود: يا آنِستي.

عزيزة: ولا هذا أيضًا.

محمود: يا مريضتي.

عزيزة: إذا شئتَ ... ولكن أُفضِّل ذِكْر اسمي مجرَّدًا.

محمود: وما اسمكِ مجرَّدًا؟
عزيزة: أتجهله؟ ... هذا مستحيل ... إني أُحادِثك كلَّ صباحٍ بالتليفون، وأذكُره لك. وطالما نادتْني به أمامك أختي الكُبرى أو والدتي يوم كانت تأتي معي هنا.
محمود: معذرةً ... لقد نسيتُ.
عزيزة: إلى هذا الحدِّ؟
محمود: في مثل سنِّي تُصبح الذاكرة ضعيفة.

(عزيزة تصمُت في غيظ.)

محمود: أضْعَفَ من صحتكِ ... ألَا تصدِّقين؟
عزيزة (في كَظْم)**:** صدِّقني ... إنك لستَ سهلًا ولا بسيطًا.

(لحظة صَمْت.)

عزيزة: ومنذ متى نسيتَ اسمي؟
محمود: لستُ أذكُر التاريخ.
عزيزة: حتى هذا أيضًا؟
محمود: نعم.
عزيزة: لقد حادَثْتُك هذا الصباح بالتليفون.
محمود: وماذا قلتِ؟
عزيزة: إنك ولا شكَّ تنسى كلَّ ما له علاقةٌ بي.
محمود: إني مُعترِف.
عزيزة: نعم (بعد لحظةٍ) قلتُ لك هذا الصباح أنا زيزي التي تكلِّمك، وسآتي إليك في منتصف السادسة.
محمود: زيزي ... هذا اسمٌ بديع.
عزيزة (عابسة)**:** كَفَى.
محمود (ناظرًا إليها)**:** غضبتِ؟
عزيزة: نعم ... لأول مرةٍ أغضب عليك وأكرهك.
محمود (في حركةٍ تمثيليةٍ ساخرة)**:** هكذا مرةً واحدة!
عزيزة: إنك تستطيع أن تحادثني بكلامٍ أرقَّ من هذا ... لماذا أحادِثُك أنا بكلامٍ لطيف؟

محمود: لأنكِ سيدةٌ لطيفة.

عزيزة: هل في الوجود مَن يصدِّق أنَّ مثلك يصنع هذا مع مثلي؟

محمود: تلك، ولا شك، إحدى العجائب.

عزيزة: إنك كنتَ تكلِّمني كلامًا عذبًا يوم جئتُك مريضةً بالصُّداع ... ألَا تذكُر ... وكنت تُعنى بي أشدَّ عناية ... وكان اهتمامك الحارُّ يكتنفني من كلِّ جانب ... إني لم أزل أذكُر كلامك الرقيق يومئذٍ.

محمود: الكلام الرقيق نحفظه هنا للمَرضى.

عزيزة: ليتني كنتُ مريضة.

محمود: أراكِ قد اعترفتِ الآن أنكِ بخير.

عزيزة: إنك تعاملني معاملةً قاسية ... قاسيةً جدًّا.

محمود: المعاملة التي يستحقُّها أمثالكِ.

عزيزة: أمثالي؟!

محمود: نعم ... الذين يجيئُون للعبث بوقت الطبيب!

عزيزة (في غضب)**:** أشكرك يا محمود.

محمود (في تجهُّم)**:** من فضلكِ قُولي: «يا دكتور.»

عزيزة (في امتعاض)**:** ألَا تحبُّ أن أناديك هكذا؟

محمود: لا أحبُّ.

عزيزة: ولمَ لا؟

محمود: لأن مَن يملك حقَّ ندائي باسمي المجرَّد شخصٌ واحد؛ زوجتي.

عزيزة (تُطرِق)**:** آه ... إني آسفة.

محمود: أمَا كنتِ تعلمين أني زوج؟

عزيزة: أعلَمُ.

محمود: وأني والدٌ كذلك؟

عزيزة: أعرِفُ.

محمود: وبرغم هذا تأتِينَ كلَّ يوم لتمثيل هذه المَهزلة.

عزيزة (مصدومة)**:** تمثيل هذه المهزلة ... ماذا تعني بهذا؟

محمود: أرجو منكِ أن تُحسنِي بي الظنَّ قليلًا أيتها الآنسة.

عزيزة: لستُ أفهَمُ ما تريد.

محمود (يُشير إلى سوالفه): أتَرَين هذا الشَّيب؟

عزيزة: ؟

محمود (يُشير إلى جبينه ووجهه): وهذه التجاعيد؟

عزيزة: ؟

محمود: إنها قد تدلُّ أحيانًا على شيءٍ آخر غير البَلَه وغير الغفلة.

عزيزة (تنتفض، ثم تتكلم بجهد): إنك لتُهينني بهذا القول.

محمود: إني أدافع عن نفسي.

عزيزة (في خطورة): ماذا تعني بكلامك؟

محمود: أظنُّ أنَّ كلامي واضح.

عزيزة: هذا أمرٌ شنيعٌ ما ترميني به.

محمود: لستُ أرميكِ بشيء ... هوِّني عليكِ ودَعِينا من هذا كله ... الساعة الآن (ينظُر في ساعته) ساعتي وقفتْ ... كم الساعة في مِعصمك؟

عزيزة (تُغالب دموعها): أنا أمثِّل مَهزلة.

محمود (وهو يشتغل بملء ساعته): تُمثِّلين مَهزلة أو تُمثِّلين مأساة ... هذا أمرٌ يرجع إلى طبيعتك، وقدرتك، ومواهبك في التمثيل ... المهم أن نختصر كلَّ هذه المواقف لأن وقتي ضيِّق.

عزيزة (في صوتٍ خافتٍ مُختنِق): أشكُرك.

محمود (وهو يفحص ساعته): العفو.

(عزيزة: تَسيل العبَرَات من عينَيها!)

محمود (يرفع رأسه عرَضًا بعد فَحْص ساعته؛ فيراها): أتبكين بدموعٍ حقيقية؟!

(عزيزة تُخرج منديلًا من حقيبة يدها، وتمسح عينيها!)

محمود: شَهِدتُ وآمنتُ أنكِ بارعة؟ ... (ينظُر إليها لحظة) كَفْكِفي سريعًا هذه الدموع ... ولنستعدَّ ... لديَّ محاضرة أُلقيها بعد نصف ساعة ... وإذا أردتِ أن تُسدي إليَّ يدًا حقيقةً؛ فأعيريني سيارتَكِ حتى كلية الطب؛ فقد ذهبتْ زوجتي بسيارتها إلى الخيَّاطة ... وسيارتي سائقها مريض ... ولعلَّ العناية الإلهية ما أرسلتكِ الآن فيما أَرى إلا لهذه الغاية السامية: خدمة العلم ... أليست سيارتكِ بالباب؟

(يفتح النافذة، وينظر إلى الشارع.)

(عزيزة مُطرِقة!)

محمود (يترك النافذة ويعود بعد أن يحاول عبثًا رؤية ما أراد)**:** يا آنسة ... أخبريني! ما هو لون سيارتكِ؟

عزيزة (ترفع رأسها)**:** أتستطيع أن تخبرني لأيِّ غرضٍ أمثِّل المَهزلة والمأساة؟

محمود: لقد فرغنا من هذا الموضوع.

عزيزة: لي الحق أنْ أسألك.

محمود: ليس لديَّ الوقت الآن ... أرجوكِ ... قدِّري ما أنا فيه من عملٍ جدِّي ووقتٍ ضيِّق.

عزيزة (في قوةٍ مخيفة)**:** إنك لن تبرح هذا المكان قبل أن أعلم ... أتسمع ما أقول؟ ... لن تبرح ... لن تبرح.

محمود: أتتوعَّدين؟

عزيزة: نعم أتوعَّد ... إنك لا تُدرك ما أستطيع أن أفعل.

محمود: ماذا تستطيعين أن تفعلي؟

عزيزة: إنك لا تعرفني.

محمود: طبعًا ... ومَن ذا يعرف المرأة؟

عزيزة: أخبرني ما هو الغرض الذي تزعُم أنِّي ...

محمود: أتريدين أن تعرفي هذا الغرض؟ ... بسيط جدًّا، وواضح جدًّا، ومعقول جدًّا؛ غرض كلِّ حسناءَ أنيقةٍ تُلاطِف كهْلًا ثريًّا.

عزيزة (تتجلَّد)**:** ثريًّا؟!

محمود (باسمًا)**:** طبعًا ... لأن الكَهْل الفقير يساوي عندكن بالضبط شَرْوى نقير.

عزيزة (لا تتماسك)**:** أنت وَغْد.

(محمود يُفاجَأ ... يتغيَّر وجهه ... لكنه يتماسك، وعندئذٍ يدخل سالم حاملًا صينية عليها فنجانان من قهوة، ويتقدَّم إلى عزيزة فلا تتحرك ... ويَلفِظ خافتًا: «القهوة.» فلا تتحرك وتظلُّ في إطراقها ... فيلتفت إلى سيده، فيلقاه كذلك مشغولًا عنه وعن القهوة وهو في إطراقٍ كذلك وتقطيب ... ويتردد سالم حائرًا

فيما يصنع ... ويبدو له أخيرًا أن يَضَع الصينية فوق مائدة صغيرة قُرب المقاعد وينصرف وهو ينقل عينَيه بين الاثنَين الجامدَين في دهشةٍ لأمرهما.)

محمود (بعد لحظةٍ يرفع رأسه): هذه أول مرةٍ في حياتي يوجَّه لي هذا اللفظ.

(عزيزة لا تتحرك!)

محمود (بعد لحظةِ صَمْت): ماذا في جَعْبتكِ أيضًا أيتها السيدة المهذَّبة؟

(عزيزة لا تتحرك!)

محمود: أرى الموقف قد طال ... اعلمي أيتها الآنسة أني جاوزتُ السنَّ التي يضيع فيها وقتي في مثل هذه السخافات ... لو كنتُ شابًّا في العشرين أو الثلاثين لكان هذا طبيعيًّا ومعقولًا ... ولكن وضعي لا يحتمل ذلك.

عزيزة (في صوتٍ متغيِّر): وهل تظنُّ امرأةً في موقفي الآن تستطيع احتمال ذلك؟!

محمود: ستبكين من جديد؟!

عزيزة (تتماسك وتكتم بمجهودٍ ظاهر): أنت مخطئ ... إني في غاية الهدوء ... (تُشير إلى صينية القهوة) هل تأذَن لي في تناول فنجان القهوة؟ ... (تمدُّ يدها إلى الفنجان) شكرًا.

محمود (ينظر إليها ساخرًا وهي ترشُف القهوة): احترسي حتى لا تسقط دموعُكِ في الفنجان.

عزيزة: لا شأن لك بدموعي ... قلتُ لك إني هادئة.

(صَمْت.)

عزيزة (بعد لحظة): ألي أن أقول لك كلمة؟ ... كلمةً واحدة فقط.

محمود: لكِ كلمتان يا سيدتي.

عزيزة: ماذا تحبُّ أن أفعل كي تعتقد أني لستُ أمثِّل مَهزلة، وأني جادةٌ فيما أقول ... وأني في أشدِّ الحاجة إليك، وأنك أنت الذي تستطيع أن ...

محمود (في تهكُّم): أهذه هي الكلمة الواحدة؟!

عزيزة: أرجو منك أن تُجيب عن سؤالي.

محمود: هذا موضوعٌ إنْ فُتِح اليوم فلن يُقفل.

عزيزة: أرجو أن تُجيب.

محمود: الآن مستحيل ... غدًا إذا شئتِ ... إني أعلم أنك ستأتين أيضًا في الغد.

عزيزة: كلَّا ... أنت مخطئ ... لن آتي في الغد.

محمود: ستأتين بعد غدٍ إذن.

عزيزة: أعِدُك أنك لن تراني إلى الأبد.

محمود: حسنٌ ... إذن أُجيبكِ عن سؤالكِ الآن في الحال ... هاتي أولًا السؤال.

عزيزة: قلتُ لك ماذا أفعل في رأيك حتى تصدِّقني؟

محمود: ماذا تفعلين حتى أصدِّقك؟

عزيزة: نعم ... ماذا أفعل؟ ... ماذا ينبغي أن أفعل؟

محمود: لا تفعلي شيئًا مطلقًا.

عزيزة: دَع المزاح ... إني في أشدِّ مواقف حياتي جدًّا وحرجًا ... إني شقيَّة ... إني تعِسة.

محمود (ساخرًا): يا لَلْهول!

عزيزة: متى تصدِّقني؟ ... تكلَّم ... أرجوك!

محمود: أصدِّقكِ في العالَم الآخر إن شاء الله! ... لأني لا أصدِّق امرأةً في عالَمنا هذا.

عزيزة: لن أستطيع الاعتماد عليك إذن؟ ... خاب أملي فيك!

محمود: تمام ... وأنصحكِ بإخلاص ألَّا تضيِّعي وقتكِ معي.

عزيزة: لن تُنقذني إذن؟ ... لا تريد أن تُنقذني ممَّا أنا فيه.

محمود: أَنقِذي أنتِ وقتي ... أرجوكِ يا آنسة!

عزيزة: وهو كذلك ... (هامسة) لن أُضايقك ... لن أُضايق أحدًا بعد اليوم! ... (تمدُّ يدها إلى فنجان القهوة الآخر) أنت لن تشرب هذا الفنجان الآخر؟

محمود: تفضَّلي.

عزيزة (ترتشف الفنجان الآخر في بُطء): مُتشكِّرة!

محمود: وأخيرًا يا آنستي يحسُن الآن أن ينزل الستار الختامي على هذه القصة المؤثِّرة.

عزيزة (في هدوءٍ خطير وهي تنظُر إليه): سريعًا.

محمود: لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟

عزيزة: أسرع ممَّا تتصوَّر (في همس) كان يجب أن أتوقَّع هذا من قبل.

محمود (مبتسمًا): كان اليوم آخر سهمٍ عندك إذن؟!

عزيزة (في صوتٍ خافت)**:** بالضبط ... (تضع الفنجان في مكانه وتنهض) آخر سهم!
محمود: أحان وقتُ الانصراف؟
عزيزة (تمدُّ له يدها)**:** إلى اللقاء ... على كل حال.
محمود: متى؟ ... غدًا؟ ... بعد غد؟
عزيزة: كلَّا ... اطمئن ... لستُ أنا هذه المرة التي أحدِّد الميعاد.
محمود: ولا أنا فيما أظن.
عزيزة: صَدَقت ... ولا أنت.

(تتَّجه إلى النافذة.)

محمود: الباب من هذه الجهة أيتها الآنسة.
عزيزة: أعلم.
محمود: إنك تذهبين جهة النافذة.
عزيزة (وهي تفتح النافذة على مصراعيها)**:** أعلم ... محمود ...
محمود: قلتُ لكِ لا تذكُري اسمي المجرَّد هكذا ... عيب!
عزيزة: آسفة ... إنما أردتُ أن أنادي سائق سيارتي.
محمود: سائق سيارتكِ؟
عزيزة (وهي تطلُّ من النافذة)**:** نعم ... هو أيضًا اسمه مثل اسمك!
محمود: تشرَّفنا ... أتريدين من هذا العلوِّ الشاهق رؤية سائقكِ الذي أتشرَّف أن أكون سَميَّه؟
عزيزة (تطلُّ من النافذة)**:** حقًّا، نحن الآن مرتفعان عن هذه الأرض كثيرًا؟

(تصعد فوق مقعد، وتتسلَّق النافذة.)

محمود: أنتِ في الطابق الخامس ... دعي المزاح واتركي النافذة؛ لئلا تنزلق قَدَمكِ الصغيرة.
عزيزة: إني لا أمزح.
محمود: اتركي النافذة.
عزيزة (في ابتسامةٍ غامضة)**:** ألَا تصدِّق على الأقل أني الآن جادةٌ فيما أقول وأفعل؟

محمود: أصدِّق أن عقول النساء صغيرة (جَرَس التليفون يدقُّ؛ فيتناول السمَّاعة) كفى هذرًا وضياع وقتٍ ... ألو ألو ... نعم ... أَزِفت الساعة؟ ... إني قادمٌ على عَجَل (يضع السماعة).

عزيزة (في ابتسامتها الغامضة): أيُّ ساعةٍ قد أَزِفت؟

محمود (في كدرٍ وحنق): ساعتي يا سيدتي.

عزيزة (غامضة): بل ساعتي أنا.

محمود: حان الوقت ولم أكتُبْ ختام المحاضرة ... آه لو علِمَ الناس كيف يضيع وقت العلماء ... هَلُمي بنا ... وإلا تركتُكِ ها هنا أيتها الآنسة.

عزيزة (وهي منتصبةٌ فوق جدار النافذة): اذهبْ واتركني.

محمود (في صبرٍ نافد): ماذا تقولين؟ ... أهو عبثٌ جديد؟ ... إنَّ هذا لم يكُن في الحسبان ... لقد طال الهزل ونسينا الجد ... أرجو أن تضعي حدًّا لكل هذا ... اتركي النافذة أو ارمي بنفسكِ منها ... افعلي أيَّ شيء يا سيدتي على شرط أن تُسرعي ... يجب أن تعلمي أنَّ لديَّ الآن محاضرةً عامة أُلقيها والناس ينتظرون.

عزيزة: إلى اللقاء.

محمود (في ضِيق): سمعتُ هذه الكلمة مِرارًا.

(يتركها في ضيقٍ ويستدير إلى مكتبه، ويشتغل بجَمْع أوراقه التي كان يكتبها.)

عزيزة (في صيحة): محمود ... حبيبي إلى الأبد.

(ثم تُلقي بنفسها من النافذة.)

محمود (وهو مشتغلٌ بأوراقه): حبيبكِ ... ما شاء الله ... ما شاء الله!

(يلتفت إليها في النافذة فلا يجِدُها؛ فتقع في الحال من يده الأوراق، ويصرخ جاريًا إلى النافذة.)

(ثم يقول في رُعْب.)

آنسة ... آنسة ... ألقتْ بنفسها ... رمتْ نفسها ... رمتْ نفسها.

(ويرتمي على النافذة ناظرًا إلى الشارع، ويسمع عندئذٍ من أعماق الشارع أصوات الناس ترتفع في هرجٍ ومرجٍ وصياح، ثم صوت صفير رجال الشرطة، وحركة انقلابٍ وهياج بالطريق يتخلَّله الصياح والصفير.)

الفصل الثاني

(عين منظر الفصل الأول؛ الأبواب مغلقة وقد وقَفَ شرطيٌّ على كلِّ باب، وكيل النيابة يفحص النافذة التي سقطت منها عزيزة ويقيس ارتفاعها عن أرض الحُجْرة، وبجواره أحد ضباط البوليس، بينما كاتب التحقيق عند المكتب، يُطرَق الباب ويدخل شرطي يحمل مظروفًا يتسلَّمه منه الكاتب.)

كاتب التحقيق: ورَدَ تقرير الطبيب الشرعي.

وكيل النيابة: ماذا وَجَد؟ ... اقرأ.

كاتب التحقيق (يفحص المظروف ويقرأ): وُجدت الجثة في حالة تيبُّسٍ رِميٍّ غيرِ كامل ... وتعفُّنٍ مُبتدئ على هيئة انتفاخ، واخضرار بجُدُر البطن، ووُجِد سائلٌ دمويٌّ يخرج من الأنف والفم ... وبنَزْع فروة الرأس وُجدتْ كسورٌ كثيرة بالجمجمة وانسكاباتٌ دمويةٌ شديدةٌ في جوهر المُخ. وبفَتْح التجويف الصدري وُجِد انسكابٌ مصليٌّ دمويٌّ شديد ... وبرَفْع الرئتَين والقلب وُجدتْ كسورٌ حيويةٌ بكلٍّ من الضلع الأول إلى الخامس الأيسر. وبتشريح العُنُق وُجدتْ أنسجةٌ سليمة وكذلك العَظْم اللامي، والغضاريف الحنجرية والقصبة الهوائية تحوي موادَّ لزِجةً رغوية ... وبفَتْح التجويف البريتوني وُجِد خاليًا من الأنزفة ... وبفتح المعدة وُجِد بها طعامٌ مهضوم، ووُجِدت الأحشاء محتوياتها سائلة ... النتيجة: الإصابات السالف ذكرها حدثت من مصادمة شديدة بجسم راضٍّ صُلب، ويجوز حصولها على أثر سقوطٍ على الأرض من مكانٍ مرتفع، والوفاة نتجتْ من الصدمة العصبية والارتجاج الدماغي، ومَضَى على الوفاة حتى إجراء الصفة التشريحية نحو اثنتي عشرة ساعة.

(يُطرَق الباب بشدَّة.)

شرطي (يفتح الباب قليلًا): الدخول ممنوع.

إقبال (من الخارج): دَعْني أدخُل.

شرطي: ممنوع.

إقبال: أريد أن أُخاطِب وكيل النيابة بسرعة.

وكيل النيابة (للشرطي): دَع السيدة تدخُل.

إقبال: زوجي تعِبٌ فيما أرى يا حضرة النائب ... ولم يَنَم طول الليل ... وأنا كذلك ... برغم الإذن لي بالعودة إلى المنزل لم أَنَم الليل من تأثير هذا الحادث المشئوم.

النائب: كِدْنا نفرغ ... استريحي لحظةً في الحُجْرة المجاوِرة.

إقبال: مع أهل الميتة؟! ... مستحيل! ... لن أنسى نظراتهم إليَّ البارحة ... كما لو كنَّا اغتلنا فتاتهم اغتيالًا.

النائب: تفضَّلي إذن بالجلوس على هذا المقعد.

إقبال (تجلس وهي تتنهَّد): كان مُقدَّرًا لي أن أرى كلَّ هذا.

النائب: أتسمحين لي أن أُلقي عليكِ أسئلةً أخرى؟ ... أكنتِ تعلمين بوجود صلةٍ بين زوجكِ وتلك الفتاة؟

إقبال (تتنهَّد): كنت أسمع الناس تهمس بذلك.

النائب: وماذا كان موقف زوجكِ من تلك الفتاة؟

إقبال: لا أدري.

النائب: ولماذا إذن ألقت الفتاة بنفسها من النافذة؟

إقبال: لا أعلم ... لم أكُنْ حاضرةً وقتئذٍ.

النائب: عندما جئتِ البارحة ووجدتِ الأبواب مغلقة، هل سألتِ زوجكِ في ذلك؟

إقبال: نعم سألتُه؛ فأجابني إنه فعَلَ هذا لكيلا تدخُل تلك الفتاة.

النائب: وهل علمتِ كيف دخلت؟

إقبال: أخبَرَني سالم عقبَ الحادث أنها كسرتْ زجاج الباب.

النائب: نعم ... كلمة أخيرة يا سيدتي ... كيف عِلْمك بحياة زوجكِ الخاصة؟

إقبال (في شبهِ احتجاج): حياة زوجي الخاصة؟ ... إنَّ زوجي يا سيدي ليست له حياةٌ خاصة ... إنه رجلٌ مستقيمُ الخُلُق، وربُّ أسرةٍ لا غبار عليه، ولا يعرف غير زوجته وولده، والقَدَر وحده هو الذي سلَّطَ عليه هذه الفتاة المجنونة.

النائب: معذرةً وعفوًا يا سيدتي ... إني ما قصدتُ من سؤالي الأخير غير ...

إقبال: إنك تُدرك يا سيدي ما أنا فيه الآن ... سيدة مثلي تُصبح هكذا بعد ليلةٍ واحدةٍ مُضغةً في أفواه الناس (كالمخاطِبة نفسها) لقد هدَمَ هذا الأحمق بيده هناء أسرته.

(يُطرَق باب الحُجْرة.)

شرطي (يلتفت إلى النائب)**:** والدة المَجنيِّ عليها.
النائب: أدخِلْها.
إقبال (تنهض)**:** سأنتظر في مكانٍ آخر.

(تتَّجه إلى الباب، وتدخل أمُّ المتوفَّاة؛ فترمق إحداهما الأخرى بنظرةٍ شَزْراء ... وتنصرف إقبال.)

النائب (يرى الأم تُكَفكِف دمعها)**:** هوِّني عليكِ يا سيدتي.
الأم: أمَا زال التحقيق في حاجةٍ إلى وجودي؟
النائب: لقد فرغنا ... لكني أريد أن أعرف منكِ شيئًا ... هل كنتِ تعرفين الدكتور محمود عزمي من قبل؟
الأم: بالطبع ... وقد جئتُ مع المرحومة ابنتي إليه هنا كثيرًا يوم كانت تشكو الصداع.
النائب: وبعد ذلك نشأتْ بينهما الصلة.
الأم: نعم.
النائب: أفاتحتْكِ المرحومة ابنتكِ بهذه الصلة؟
الأم: كلَّا ... ولكني كنتُ أسمعها تطلبه كثيرًا في التليفون، وتذكر اسم محمود دائمًا ... سمعتُها تقول ذات مرة: «إما أن أتزوج محمود أو أموت.»
النائب: أشكركِ يا سيدتي.
الأم: هل أنصرف؟
النائب: ألَا تريدين أن تُلقي سؤالًا أخيرًا على الدكتور محمود عزمي ... (للشرطي) أَحضِر الدكتور.
الأم: ماذا أقول له؟ ... (تبكي) كفاية ما حَصَل.
النائب (في رفق)**:** صبرًا يا سيدتي.

(يدخل الدكتور محمود عزمي وقد بدا عليه التعب والألم.)

النائب (لمحمود): اجلس يا دكتور.

(الدكتور عزمي يجلس ويُطرِق.)

النائب (لمحمود): أريد أن أعلم منك أمرًا ... إنك تقول إنَّ المتوفَّاة صعدتْ فوق هذا المقعد كي تصل إلى النافذة، أمَا كان في مقدورك أن تُسرع إليها وتمنعها من إلقاء نفسها؟

محمود (يرفع رأسه): يا سيدي النائب لقد قلتُ لك إني لم أكن أصدِّق أنها جادَّة في قولها ... إنك لا تُدرك مبلغ وَقْع هذه الكارثة على نفسي ... لقد تمَّ الحادث في سرعةٍ غريبة صدَمَت مخيِّلتي وأذهلتْني ... إني لم أَزل أجِدُ صعوبةً في تصديق ما رأتْه عينَي.

النائب: أقالتْ لك إنها ستُلقي بنفسها من أجلك؟

محمود: نعم ... قالتْ ذلك.

النائب: وبالطبع حَسِبتَها تمزح.

محمود: من غير شكٍّ ... وهل كان يخطر لي على بالٍ أنَّ تلك الفتاة الجميلة تموت من أجل مثلي ... إني ما زِلتُ أشكُّ ... أهي ماتت حقًّا؟!

النائب (يُشير إلى تقرير الطبيب الشرعي): اقرأ هذا.

محمود (يتصفَّح التقرير): الصفة التشريحية ...

(الأمُّ تتنهَّد.)

محمود (كالمخاطِب نفسه): نعم ... نعم ... وا عجبا ... مَن كانت البارحة تُدعى زيزي أصبحت اليوم خليطًا متعفِّنًا من المواد اللزِجة الرغوية.

الأم (لا تتمالَك؛ فتصيح باكيةً): كفى ... بالله كفى.

محمود (يلتفت إلى الأمِّ متألِّمًا): معذرةً يا سيدتي، معذورةٌ، وإن كان الأمر قد جلَّ عن المعذرة ... إني أُدرك ما أنتِ فيه الآن، وأرجو أن تُحسِني بي الظنَّ، وأرجو أن تعتقدي ... أني ... ماذا أقول؟

النائب (لكاتب التحقيق في صوتٍ خافت): اطوِ الأوراق.

الأم (باكية): هذا قضاء الله.

النائب: لقد تمَّت مَهمَّتُنا ... قبل أن ننصرف ... ألديكما أقوالٌ أخيرة؟

الأم (باكيةً): كلَّا يا سيدي.

محمود (وهو مُطرِق يُشير برأسه): كلَّا.

النائب (يتقدَّم نحوهما، ويسلِّم عليهما مودِّعًا): الصبر يا سيدتي، وأنت يا دكتور كذلك.

(ينصرف وكيل النيابة وكاتب التحقيق والضابط والشرطي، ولا يبقى غير الدكتور والأم.)

الأم (تتحرك): اسمح لي يا دكتور بالانصراف.

محمود (في ألم): ابقي هنيهةً يا سيدتي ... أريد أن أُقنعك بشعوري ... ولا أجِدُ كلمات ... ولا أجِدُ قدرةً على التعبير ... إنَّ ألمي شديدٌ لأني أنا السبب.

الأم: إنك لم ترتكب ذنبًا يا سيدي ... ذلك قضاء الله.

محمود: إني يا سيدتي مُذنِبٌ أمام ضميري، كان ينبغي أن أصدِّقها ... (كالمخاطِب لنفسه) ما أنبلَ عواطفَهَا، وما أجملَ ما صنعتْ! ... إنها فعلتْ ذلك من أجلي ... أنا الذي كذَّبتُها وامتهنتُ شعورها ولم أصدِّق حرفًا من كلامها.

الأم: لا فائدة ... لقد مضت، وأصبحتْ من أهل العالم الآخر.

محمود (ينظر إلى النافذة): نعم ... مضت من هذه النافذة ... إن هذه النافذة عندي الآن لا يمكن أن تُشرف إلا على العالم الآخر.

الأم (تتحرك): أستودعك الله يا سيدي (تبكي) لقد ماتت ابنتي في ريعان صِباها، وأصبحتْ عَدمًا، ولن أراها بعد اليوم ... (تبكي).

محمود (في ألم): صبرًا يا سيدتي ... هوِّني عليكِ ... إنكِ تزيدين في ألمي ... إنها حقًّا قد ماتت، ولكنها لم تُصبح عدمًا ... إنَّ الأموات يا سيدتي ليسوا عدمًا ... إنهم كائنون أحياء، لا فَرْق بينهم وبيننا في نَظَر الأزل ... وهُمْ حيثما كانوا يؤثِّرون فينا وفي حياتنا كما لو أنهم بيننا ... لو تعلمين أيَّة منزلةٍ لهذه الفتاة في نفسي الآن؟ ... وأيَّ تغيير طرَأَ في مجرى حياتي منذ البارحة؟

الأم (تلتفت إليه): إني أصدِّقك يا سيدي وأشكُرك، وأثِق بك. إلى الملتقى.

محمود (يُشيِّعها): إلى الملتقى القريب يا سيدتي ... إنَّ شعورنا متَّحدٌ متلاقٍ ... وفي تلاقينا وتشاكينا بعض التخفيف عمَّا بنا.

(تخرج الأم.)

(تدخل إقبال وتقابل الأم في خروجها دون أن تكلِّم إحداهما الأخرى.)

إقبال (لزوجها في فُتور): أحسنتَ صُنعًا بمجاملة هذه الأم؛ فإنَّ مُصابها حقًّا أليم.

(محمود يجلس ويُطرِق ولا يتحرك.)

إقبال: برغم أنها لم ترعَ واجب اللياقة، ولم تُعنَ بأمري وأنا صاحبة المكان.

(محمود يتحرك قليلًا.)

إقبال: يظهر أنها تنظُر إليَّ كما لو كنتُ ضَرَّة لابنتها.

(محمود يستدير وينظر إليها.)

إقبال: لماذا ترمُقني بهذه النظرة؟
محمود (في صوتٍ جاف): لماذا أنتِ هنا؟
إقبال: لماذا أنا هنا؟ ... أتكره أن أكون بجانبك في المُلِمَّات؟
محمود: بجانبي ... نعم، هذا كلُّ ما تستطيعين.
إقبال: ماذا كنتَ تريد أن أصنع لك أكثر من ذلك؟
محمود: اذهبي واستريحي من عَناء السهر.
إقبال: وأنت؟
محمود: لا شأن لكِ بي.

(لحظة صَمْت.)

إقبال (تتأمَّله صامتةً لحظةً من الوقت): يا لله ... ما كلُّ هذا الوجوم والتقطيب؟ ... ما الذي تغيَّر في الفَلَك.
محمود: ألا تَرَين ما تغيَّر في الفَلَك؟
إقبال: كلَّا بالطبع.
محمود: لا فائدة إذن من الحديث معكِ أيتها المرأة.
إقبال: أُقسم أنك جُننت.
محمود: كفَى.
إقبال: لا ريب أنَّ سلوكك اليوم غريب ... أفهم أن يتأثر الإنسان بحادثٍ كهذا ... لكن التأثُّر له حدود ... إني أنصح لك ...

محمود: لستُ أَقْبَل منكِ نصحًا.
إقبال (تستمر)**:** أن تعود إلى البيت، وتخلع ثيابك.
محمود: سأخلع ثيابي هذه ... وسأرتدي ثيابًا سوداء.
إقبال: حِدادًا على مَن؟
محمود (يستمر)**:** لن أخلعها طول الحياة.
إقبال (ساخرة)**:** وتُطلق لحيتك أيضًا فيما أظن.
محمود: سأفعل.
إقبال: إنك ستجعلنا مُضغةً في الأفواه ... وهُزْأة في أعين الناس.
محمود: لستُ أُبالي بالناس.

(صَمْت.)

إقبال (بعد لحظة)**:** أتلك الفتاة ...؟
محمود: نعم ... تلك الفتاة ... ماذا تريدين؟
إقبال: لا شيء.
محمود: أرجو أن تدَعِيني منفردًا الساعة.
إقبال (في أسف)**:** أين رَزانتك وعقلك وماضيك الطويل الذي لا غبار عليه؟ ... أَلَمْ أَقُل لك «كلُّ هذا يذهب في ساعةٍ واحدة»؟

(محمود لا يتحرك.)

إقبال: أَلَمْ تعتبْ عليَّ أمس وتطلُب إليَّ أن أثِق بك؟ ... فها أنا ذي أفعل ... ماذا صنعتَ بالثقة التي أوليتُك إياها؟

(محمود يتمَلْمَل قليلًا.)

إقبال: أعرفتَ الآن أني كنتُ على حقٍّ في ظنِّي؟ ... تكلَّمْ يا محمود ... يا حبيبي.
محمود (كمَنْ يخاطب نفْسَه)**:** محمود ... حبيبي.
إقبال (تنظُر إليه متفرِّسة)**:** ماذا دهاك؟!
محمود: تلك آخر كلمةٍ لفَظَتْها!
إقبال (في كَظْم)**:** آخر كلمةٍ لفَظَتْها؟

محمود: قبل أن تمضي.
إقبال (في صوتٍ خافت)**:** إلى الجحيم.
محمود (هائجًا)**:** إقبال.
إقبال: لم أَعُدْ أحتمل صبرًا.
محمود: إقبال.
إقبال: إنك لا تُخيفني بهذا الوجه وهذا الصوت.
محمود: اغرُبي عن وجهي.
إقبال: يا لَلْغضب الهائل.
محمود: قلتُ لكِ اغرُبي.
إقبال: محمود!
محمود: لا تَلفِظي اسمي بعد اليوم.
إقبال: أليس لي هذا الحق؟
محمود: كلَّا ... لم يعُدْ لكِ.
إقبال: ما الذي جرى؟ ... هذه أول مرة تُسِيء فيها معاملتي.
محمود: عُودي إلى البيت.
إقبال: ألستُ زوجتك المحبوبة ... وتاريخ زواجنا ...
محمود: لا تُلقي عليَّ الساعة تاريخًا ... إني تعِب.
إقبال: أرى هذا.
محمود: ينبغي لكِ أن تسكتي وتحترمي ما أنا فيه.
إقبال: أحترم ما أنت فيه؟!
محمود: أو تنصرفي عنِّي.
إقبال: سكتُّ ... واحترمتُ ما أنت فيه ... كان مكتوبًا عليَّ ولا ريب أن أُشاهد هذه المآسي المُضحِكة ... ولقد طالتْ بنا المشاهدة ونسينا أنفسنا ... ومنذ البارحة لم أتناولْ شيئًا من الطعام ... ما أجملَها حياة! ... لماذا يا إلهي سلَّطتَ علينا تلك الفتاة المفتونة؟!
محمود (غاضبًا)**:** فلْيخرس لسانُكِ أيتها المرأة.
إقبال: لساني لن يخرس أيها الزوج الخائن.
محمود: إني أحرِّم عليكِ الكلام عنها.
إقبال: يا لَلْعجب لقد أشركتَ بي امرأةً أخرى ... امرأة أخرى ... امرأة ميِّتة ... لكنك فيما أرى تقدِّرها أكثرَ من الحيَّة.

محمود: نعم أقدِّرها ... أقدِّرها وأُجلُّها.

إقبال: وماذا كسبتُ أنا بالورقة التي استكتبتُك إياها؟ ... إني لا أستطيع حتى المطالبة بالخمسين ألفًا في مثل هذه الحالة، أوَكان هذا يدور بخاطري؟ أنك تُدخل ضَرَّة عليَّ ... امرأة من عالَم الأموات!

محمود: كفَى!

إقبال (بعد لحظةِ صمتٍ وتأمُّل)**:** ألَا ترى أنَّ كل هذا منك إخلالٌ بواجب الزوجية؟

محمود: ليس يهمُّني الآن واجب الزوجية ... ينبغي أن أُؤدي واجبًا أقدسَ من واجب الزوجية، واجبًا نحو إنسانٍ منَحَني حياته بلا مقابل ... حياةً نضِرةً بأكملها ... أتفهمين؟

إقبال: هذا لا شأن لي به.

محمود: نعم لا شأن لكِ به ... لأنك امرأةٌ أنانية لا يَعنيكِ من الحياة إلا ما يتَّصل بشخصكِ، وما يعود نفعُه عليكِ وحدكِ ... إني الآن أمام حدَثٍ خطير في حياتي، وأمام شخصٍ ينبغي أن أحنِي رأسي إجلالًا لَمَا صَنَع ... أنتِ أيتها المرأة والزوجة ماذا أعطيتِ؟ ... وأيُّ إنسانٍ على الأرض ماذا يستطيع أن يُعطي إنسانًا؟ ... إنَّ كل كنوز الأرض لا شيء إلى جانب حياة إنسان ... ومَن ذا في هذا الوجود يبذل حياته الجميلة كلها لآخر بغير مقابِل؟ ... لكنها هي قد فعلتْ ذلك.

إقبال: تذكَّرْ قبل كل شيء أنك ربُّ أسرةٍ تعيش الآن هانئة ... فلا تُفسد هذا الهناء.

محمود: مرةً أخرى تتكلمين عن هنائكِ أنتِ ... قلتُ لكِ لستُ أَحفِلُ الآن بهنائكِ أيتها المرأة، ولستُ أعيش لكِ منذ اليوم. فهمتِ لقد عملتُ على هنائكِ خمس عشرة سنة، وأنفقتُ شبابي وأكثرَ عمري لكِ ... فماذا تريدين الآن ممَّا بَقِي من هذا العمر؟ ... ما بقي هو لي، وسأمنحه تلك التي منحتْني حياتها كاملة ... أتفهمين؟ ... حياتها كاملة ... شبابها وجمالها وآمالها في لحظةٍ واحدة من هذه النافذة ... إنكِ لا تُدركين عِظَم ما فعلتْ هذه الفتاة ... تخيَّلي هذا ... أن أطلب إليكِ أن تُلقي بنفسكِ من هذه النافذة الآن من أجلي ... ماذا يكون جوابك؟ ... وَجَمتِ ... اعترفي أنها قد أتتْ عملًا عظيمًا وأنها ذاتُ قلبٍ نادرِ الوجود ... إني ... أُصارحكِ وأشْهَد على نفسي ولستُ أُبالي بأَحد ... سأعيش منذ اليوم لهذه الفتاة ... سأعيش بذكرى هذه الفتاة.

(إقبال واجمةٌ تُطرِق.)

(صَمْت.)

(يُسمع في الشارع أصوات باعَة الصُّحف مُنطلِقين يُنادُون.)

باعة الصحف (في الخارج صائحين): الحادثة، الحادثة، حادثة الانتحار!
إقبال (كمَن تخاطب نفْسَها): يا لَلْفضيحة!

الفصل الثالث

(في منزل الدكتور عزمي، بَهْو فخمٌ على أحدث طراز له جملة أبواب يتوسطها باب زجاجي رَحْب، في صدر المكان تنسدل على زجاجه الشفَّاف ستائر من الدمقس ... الأم والدة زيزي جالسة تنتظر وهي تتأمَّل حولها سيما البَذَخ على المكان ... إلى أن تدخل إقبال من بابٍ جانبيٍّ صغير.)

إقبال (في استقبالٍ وحفاوة)**:** أهلًا وسهلًا!

الأم (وهي تجيب عِناق إقبال بالمِثل)**:** أشكُر لكِ زيارتكِ في الأسبوع الماضي يا إقبال هانم، وآسفة أشدَّ الأسف على أني كنتُ غائبة.

إقبال (وهي تجلس بين يديها)**:** إنما أردتُ أن أُحادِثكِ.

الأم: أعلمُ فيما الحديث.

إقبال (في تنهُّد)**:** نعم ... كلُّ القاهرة تعلم.

(إقبال الآن مُهمِلة الهِندام، بادٍ عليها القنوط.)

الأم: والله يا إقبال هانم لولاكِ أنتِ ما كنتُ أدخل هذا البيت.

إقبال: لكِ العذر.

الأم: ولكِ أنتِ أيضًا ... إني أُدرك ما تُعانين ... ولو كنتُ في مكانكِ ...

إقبال: لو كنتِ في مكاني ماذا كنتِ تصنعين؟

الأم: إنه رجلٌ غريب.

إقبال: إنه لم يعُدْ يحتمل.

الأم: كمْ سنةً لكِ معه؟

إقبال: خمس عشرة سنة.
الأم: وهو يسلك هذا السلوك؟
إقبال: بالعكس ... لقد كان رجُلًا مستقيمًا وزوجًا رزينًا لا غبار عليه.
الأم: وما الذي دهاه إذن؟
إقبال (كالمخاطِبة نفْسَها)**:** لستُ أدري.
الأم: أيمكن أن يتغيَّر الإنسان في آخر عمره؟
إقبال: لمَ لا؟ ... ها هو ذا أمامنا المَثَل الحيُّ.
الأم: وينسى ما مضى من حياته؟
إقبال: في ساعةٍ واحدة.
الأم (في تنهُّد)**:** صدقتِ ... حتى المُصاب الأليم قد نَسِيه.
إقبال (في مرارة)**:** لقد نسي كلَّ ماضيه ... نسي كلَّ شيء ... إنه انقلب اليومَ رجلًا آخر.

(تدخُل وصيفةٌ تحمل فنجانَين من القهوة على صينيةٍ ثمينة، وتتقدَّم بها إلى الأم.)

إقبال (للوصيفة إذ تَفرُغ من الضيفة وتتقدم بالفنجان إلى سِتِّها)**:** أين سيدك كل هذا الوقت؟
الوصيفة: في الحمَّام يا ستِّي.
إقبال (تنظُر إلى الأم نظرةً ذات معنًى)**:** طبعًا ... في الحمَّام ... نعم ... دائمًا ... (ثم تلتفت إلى الوصيفة ثانيةً) والحلَّاق؟ ... وعاملات المحل؟
الوصيفة: لم يحضروا بعد.
إقبال (للوصيفة مشيرةً إلى مائدةٍ صغيرة)**:** طيِّب ... اتركي الصينية وانصرفي.

(الخادم تفعل ما أُمرت به وتنصرف.)

الأم (في دهشة)**:** الحلَّاق وعاملات المحل؟!
إقبال: نعم يا سيدتي ... الحلَّاق حلَّاق من أشهر حانوت، تُعاوِنه آنِسَتان، إحداهما تقوم بتنظيف وصقل أظافر اليد، والأخرى أظافر القدم.
الأم: أتَمزَحين؟

إقبال: كلَّا يا سيدتي ... لقد أمسى اليوم في البيت لا عمل له ولا شغل سوى الحمَّام والحلَّاق والخيَّاط ... ويظلُّ الحلَّاق بالأصباغِ يَخضِب ما وخَطَ الشَّيب من شعره ... وبالمساحيق والكهرباء يفرُك ما بجِلْد وجهه من تجاعيد كي يُعيد إلى البَشَرة رونقها وشبابها.

الأم: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إقبال: نعم، بعد هذه السنِّ يعود إليه الشباب من جديد.

الأم: يا لَلْعجب.

إقبال: إنكِ لو شاهدتِه الآن لرأيتِ رجلًا لا تعرفينه، ولم يسبق لكِ به عَهْد ... متى تلاقيتُما آخرَ مرة؟

الأم: رأيتُه آخرَ مرةٍ منذ خمسة شهور.

إقبال: ليلة الأربعين؟

الأم: نعم ... وبعدئذٍ بلغتني أخباره الجديدة.

(تضع فنجانها، وكذلك إقبال.)

إقبال: أَلَمْ تذهبي إليه في العيادة.

الأم: ذهبتُ مرة.

إقبال: شاهدتِ طبعًا صورة الفقيدة مكبَّرةً في صدر الحُجْرة.

الأم: نعم ... ومن أجل هذه الصورة بالذات جئتُ أُحادِثك.

إقبال: آه يا عزيزتي ... هذه صورة تُعرَض كل يوم على أفواج السيِّدات والآنسات المتدفِّقات على العيادة الآن في غير انقطاع.

الأم: علمتُ أخيرًا.

إقبال: نعم ... ذاك حديث البلد، إنَّ الصحف كلها نشرتْ بحروفٍ كبيرة خَبَرَ الحادث في حينه ... وروتْ أنَّ آنسةً جميلة من أسرةٍ معروفة انتحرتْ من أجل الدكتور عزمي الطبيب المعروف، أَلَمْ يُطلِعكِ أحدٌ على أقوال الصحف يومئذٍ؟

الأم: أطلَعُوني.

إقبال: أَلَا تتصوَّرين بعد ذلك سيدات القاهرة وأوانسها يُهرِعنَ إلى هذا الطبيب مدفوعاتٍ على الأقل بحبِّ الاستطلاع ... يُشاهِدنَ الرَّجل الذي انتحرتْ من أجله آنسةٌ جميلةٌ

معروفة؟ ... ثم ألَا تتصوَّرين وابلَ الهوى والمغازلة والمطارحة يُمطر على العيادة من كلِّ جانب؟

الأم (في مرارة): شيءٌ جميل.

إقبال (في مرارةٍ أيضًا): أليس كذلك؟ ... رَجلُ علمٍ جاوز الخمسين ينقلب إلى دُونْ جُوان!

الأم: وكيف تصبرين أنتِ على هذا الحال؟

إقبال: ماذا أصنع؟ ... لقد فكرتُ طويلًا في الأمر ... لي منه غلام ... إني أتحمَّل كل شيءٍ من أجل «جمال» ... ومع ذلك ... (في تردُّد وهي تلتفت إلى مِرآةٍ في الحائط) ومع ذلك مَن يتزوج امرأةً مثلي الآن؟ ... (تتنهَّد) امرأةً محطَّمَة!

الأم: لا تبخسي من قَدْرِكِ يا إقبال هانم، أنتِ ما زلتِ جميلة ... ومهما ذبُلت الزهرة فإنَّ عبيرها موجود.

إقبال (تُطيل النظر في المِرآة وتقول في مرارة): كلَّا ... لقد ذبُلْنا ... ولقد قلتِها ... انتهى كلُّ شيءٍ بالنسبة لي.

الأم (تنظر إلى إقبال متفرِّسة): كم عمركِ يا إقبال هانم؟

إقبال (في تردد): سأبلُغ عمَّا قليلٍ الثلاثين.

الأم (في قوةٍ وحماسة): في ريعان الشباب، علامَ اليأس إذن؟

إقبال (في مرارةٍ وشك): أتظنِّين؟

الأم: أوَترتابين في ذلك؟ ... كلَّا يا إقبال هانم، لا يجوز لكِ أن ترتابي ... كل ما في الأمر أني ...

إقبال (تنظُر إليها في اهتمام): تكلَّمي ... أرجو منكِ أن تكوني صريحة.

الأم: إني فقط أراكِ اليوم أقلَّ عنايةً بنفسكِ ممَّا كنتِ عندما التقينا يوم وقوع المُصاب.

إقبال: هذا صحيح.

الأم: يومئذٍ كنتِ في مَلبَسكِ، وفي نضارة وجهكِ؛ كسيدةٍ في الثلاثين ... أقصدُ في العشرين.

إقبال (تنظُر إلى ملبسها المُهمَل بعضَ الشيء): صدقتِ ... إني الآن أُهمل شأني أكثرَ ممَّا ينبغي، وأبدو لذلك كأني عجوز!

الأم: إنَّ زوجكِ يكبُركِ بعشرين عامًا ... أليس كذلك؟ ... وها هو ذا قد عاد إليه شبابه.

إقبال (في تنهُّد): هذا شيءٌ آخر.

الأم: لا تقولي هذا ... تزيَّني كما يفعل وتصنَّعي، وائتي بمِثل حِلاقاته ومساحيقه.

إقبال: لا أستطيع.

الأم: وكيف استطاع هو؟

إقبال: لستُ أدري، وهذا ما يحيِّر عقلي ... لا أستطيع الآن ذلك أنا ... لا أستطيع.

الأم: ولكنكِ كنتِ تُعنين بنفْسكِ قبل اليوم.

إقبال: لستُ أدري كذلك ما أقعَدَني عن التزيُّن الآن؟

الأم: صَدَم نفْسكِ هذا الرَّجل.

إقبال: لستُ أكتُمكِ أنَّ منظره وقد انقلب شابًّا في الثلاثين يملؤني حسرةً ويُخيَّل إليَّ أني أصبحتُ أكبر منه سنًّا.

الأم: ثم هاته الأوانس والفتيات حوله، كما تقولين.

إقبال: نعم.

الأم: نعم ... إنه لم يعُدْ يلتفتُ ويُعنى إلا بالنساء الأخريات. نعم ... لقد أدركتُ الآن.

إقبال: أتُصدِّقين أن زوجي هذا قد أتى عليه حين، كان فيه يأبى صبْغَ شعره، وكان يطرد الحلَّاق طردًا؟

الأم: رأيتُ شعره الأبيض بعيني نابتًا في ذَقَنه بإهمال.

إقبال: وكنتُ أزهو أنا في أجمل أثواب تُخرجها الخياطات.

الأم: بالطبع.

إقبال (تتنهَّد): ما علينا ... إني مُغتبِطة حقًّا بزيارتكِ.

الأم: وأنا كذلك يا إقبال هانم.

إقبال: حبذا لو التقينا كثيرًا.

الأم: هذا ما أتمناه يا عزيزتي.

إقبال: أنتِ الوحيدة التي تستطيعين فَهْم ما أنا فيه ... وأشعر أن كلامكِ يُعيد إليَّ بعض الراحة.

الأم: والثقة أيضًا ... بودِّي لو أُعيد إليكِ الثقة.

إقبال: الثقة؟!

الأم: نعم ... بنفْسكِ وشبابكِ ونضارتكِ؛ لا تنهزمي أمامه ... لا تجعليه يكسر نفْسكِ! ... إني ليَحزُنني حقًّا يا إقبال هانم أن أراكِ بهذا المظهر اليائس لغير ما سبب، تشجَّعي أمام زوجكِ الفاجر، ذكِّريه بسنِّك وبسنِّه.

إقبال: فعلتُ كثيرًا ... بدون فائدة.

الأم: بدون فائدة؟!

إقبال (تهز رأسها أن بلى ... ثم بعد لحظة)**:** بدون فائدة ... هنالك شيءٌ في الإنسان أقوى من السنِّ ... لقد تبيَّنتُ الآن وتحقَّقت.

الأم: يا له من رَجلٍ عاتٍ، أمَا كفاه الذي فعل بابنتي؟ ... أُقسم لكِ يا إقبال هانم أني أتألَّم لكِ أيضًا كما لو كنتِ ابنتي.

إقبال: أحسُّ ذلك وأشكركِ من كلِّ قلبي.

(الوصيفة تعود لأَخْذِ الصينية.)

الوصيفة (وهي تحمل الصينية وتذهب بها)**:** سيدي الدكتور خرَجَ من الحمَّام.

الأم (في تهكُّمٍ مرير)**:** نعيمًا.

(الوصيفة تخرج.)

إقبال (للأم)**:** هل لكِ في مقابلته؟

الأم (في استنكار)**:** أنا؟ ... وما عسى أن أقول له؟ ... لا شأن لي به ... لم يَكفِه أنه السبب في موت ابنتي؛ فجعَلَ يعبث بذكراها هذا العبث ... كل ما أريد الآن هو أن ينزع صورة ابنتي من عيادته، وأن يكفَّ عن عَرْضها لأنظار النساء ... وهذا ما جئتُ أطلبه منكِ أنتِ.

إقبال: منِّي أنا؟ ... وهل لي سُلطة خَلْع هذه الصورة من عيادته؟

الأم: أَلَا تستطيعين أن تُكلِّميه في ذلك؟

إقبال: لا ... إنه سيسخر منِّي حتمًا.

الأم: وما العمل؟

إقبال: كلِّميه أنتِ.

الأم (تنظُر في ساعتها)**:** وهل سيكون مستعِدًّا للقائي سريعًا؟ ... لقد آنَ وقتُ انصرافي ... منزلي كما تعلمين بعيد ... والسيارة لا سائق لها حتى الآن ... إنها كانت سيارة ابنتي ... وكانت هي التي تسوقها بعد هرَبِ سائقها.

إقبال: هرَبِ سائقها؟!

الأم: نعم ... هرَبَ من أجل امرأة ... ومنذ ذلك اليوم لم تُرِد ابنتي أن تبحث عن سائقٍ غيره ... إنها كانت فخورًا به، كثيرة التحدُّث عن صفاته.

إقبال: أكان شابًّا؟!

الأم: محمود؟! ... نعم ... كان شابًّا وسيمًا.

إقبال: كان اسمه «محمود»؟

الأم: نعم ... وكان في غاية النشاط والهمَّة.

إقبال: تقولين إنه هرَبَ من أجل امرأة؟! ... والمرحومة عرَفَت ذلك طبعًا ... أَلَمْ يظهر بعد ذلك؟

الأم: ظهَرَ ... جاءني بعد انتحارها يبكي ويأسف على تصرُّفه.

إقبال: تصرُّفه؟ ... ماذا يقصد بذلك؟

الأم: المجاملة ... ربما.

إقبال (كالهامسة): ربما كان الأمر أكثر من ذلك ... على كل حال ... أشكركِ يا سيدتي ... أشكركِ ... بدأتُ أفهم.

الأم: أرى وجهكِ تغيَّر فجأة!

إقبال (منتعِشة): إني سعيدة بمجيئكِ اليوم ... سعيدة جدًّا ... في غاية السعادة.

الأم: القلوب عند بعضها يا ستِّي ... أنا أيضًا سعيدة بمعرفتكِ.

إقبال (كالمخاطِبة لنفسها وقد سَرَت فيها قوةٌ مفاجئة): أنا السعيدة ... نعم ... سوف يرى هذا الرَّجل أنَّ لكل شيء حدًّا ... جاء دوري في الضحك ... وسأضحك ... وسأضحك ... وسأنتقم.

الأم (في دهشة): ما الذي حَدَث؟

إقبال (تنهض): ستعرفين غدًا؛ وستقولين إن إقبال هي إقبال.

الأم (تنهض كذلك): ما معنى هذا؟

إقبال (تُجلسها): كلَّا ... ابقي لحظةً حتى تستمتعي قليلًا بمنظر هذا الشاب ابن الثلاثين.

الأم: الآن؟

إقبال: نعم الآن ... وسأتركِ معه قليلًا.

(إقبال تتَّجه إلى الباب الزجاجي الرحب في الصدر وتفتحه قليلًا، فيكشف عن بَهْو آخرَ جميلٍ به محمود على كرسي أمام مرآة كبيرة يُحيط به الآنستان، كلٌّ منهمكة في عملها.)

الأم (إذ ترى محمود على هذه الصورة): ما شاء الله ... ما شاء الله.

(محمود مشغول بشأنه لا يلتفت.)

إقبال (تُشير إليه وقد أعطى كلَّ آنسةٍ ذراعًا): كأنه هارون الرشيد بين جواريه!
محمود (يسمع ويلتفت إليها): هارون الرشيد ... أغلقي الباب ... ألَا ترين أني الآن في ساعة زينتي؟!
إقبال (في تهكُّم ضعيف): ساعة مقدَّسة!
محمود (يلتفت إلى الأم): آه ... أهلًا وسهلًا ... كيف حالكِ يا والدتي؟
الأم (تهمس في استنكار): والدتك؟
إقبال (لمحمود): أجِّل ما أنت فيه قليلًا ... ورحِّب بالسيدة التي تفضَّلت بالزيارة.
محمود (ينهض وينزع المناشف من عنقه): واجب!

(ثم يدخل البَهْو الأول بعد أن يُشير إلى الآنستَين بالانتظار، وتُغلق إقبال الباب الرحب كي تحجب الآنستَين ثم تمضي تاركةً محمود والأم.)

(محمود يَخطِر في رداءٍ منزلي من الحرير زاهي اللون وهو ذو منظرٍ حسَنِ الهندام، حليق الذقن، خفيف الشارب ... غير واضحِ الشَّيب والتجاعيد كثيرًا.)

محمود: ما أسعَدَنا بالزيارة!
الأم (وهي تتأمَّل منظَرَه): إنما جئتُ لإقبال هانم.
محمود (وهو دائمًا يتكلم بلهجةٍ جديدة، تنمُّ عن نفسيةٍ جديدة): فقط؟!
الأم: هي وحدها التي يتَّسع وقتها لي.
محمود: ووقتي أنا؟
الأم (في تهكُّم خفي): وقتك أنت يُنفق طبعًا فيما هو أجدَى وأهمُّ.
محمود: هذا لا يمنع أنَّ في الإمكان ... أو في بعض الأحيان.
الأم: أشكرك.

محمود: ما أعجبَ الزمن! ... أنت تزورين إقبال ولا تحفلين بي؟ ... ما الذي غيَّركِ نحوي؟!

الأم: لستُ أنا التي تغيَّرت.

محمود: ولا أنا طبعًا.

الأم (في تهكُّم)**:** ولا أنت؟!

محمود: ماذا ترين فيَّ قد تغيَّر؟

الأم (في تهكُّم)**:** لا تسألْني أنا هذا السؤال.

محمود: ومَن تريدين أن أسأل؟

الأم (تُشير إلى مِرآةٍ في البَهْو)**:** سَل المِرآة؛ فهي تُجيب أفصَحَ جواب.

محمود (ينظُر إلى المِرآة)**:** حقًّا، إني أُعنى الآن بأمر الهندام قليلًا.

الأم (في سخرية)**:** قليلًا؟!

محمود: لستُ أُنكر أني كنتُ أُهمل شأني فيما مضى أكثر ممَّا ينبغي؛ فكنت أبدو ...

الأم: كلَّا يا سيدي ليستْ مسألة إهمال.

محمود (مقاطعًا في امتعاض)**:** ما علينا ... كم تسرُّني زيارتكِ اليوم.

الأم (في تهكُّم لاذع)**:** حقيقة!

محمود (يلحظ التهكُّم ويرتبك قليلًا)**:** لا سيما بعد ...

الأم: بعد الذي حَدَث.

محمود: ما الذي حدث؟ ... (ينظُر حوله في حيرة) أين إقبال؟

الأم: سأنتظر وحدي ... ولا حرَجَ أن تمضي أنت لشأنِك ... فأنت مشغولٌ فيما أرى ... والآنستان في الانتظار.

محمود (ينظر إلى الساعة في مِعصمه)**:** أستطيع أن أبقى معكِ أيضًا نحو ... نصف دقيقة.

الأم: إني أرى أنَّ حديثي أصبح يُثقل عليك.

محمود (بغير انتباه)**:** كيف عرفتِ ذلك؟

(يستدرك ويتنحنح.)

الأم: هذا واضح ... ولا يحتاج إلى فِراسة كبيرة.

محمود (في شيءٍ من الارتباك)**:** عفوًا ... يظهر أنَّ شيئًا يشغَل فِكري.

الأم: لا شكَّ عندي في أنَّ فكرك مشغول.

محمود: أتَلحَظين ذلك؟

الأم (في نغمةٍ تهكُّمية ذاتِ مغزًى)**:** لستُ أنا وحدي ... كل القاهرة تَلحَظ أنك اليوم مشغولُ الفكر والبال.

محمود (متَّخذًا هيئة الجِد)**:** في أعمال العيادة طبعًا.

الأم: وفي غيرها.

محمود (في ضِيق)**:** من المُحتمَل ... (لنفسه في صوتٍ خافت) هذا لا يُحتمَل.

الأم: ليس عندك فيما أرى ما تقوله لي.

محمود: أيَّ نوعٍ من القول تريدين؟

الأم: لستُ أنا التي تذكِّرك.

محمود: حسنًا تفعلين ... إنَّ من المزايا أن يكون الإنسان ضعيف الذاكرة.

الأم: أرجو لك يا سيدي حياةً طويلة؛ وليلهمني الله بعض ما ألهمك من الصبر والنسيان ... لي عندك فقط طلبٌ واحد.

الطبيب: أنا في خدمتكِ.

الأم: صورة المرحومة لم يعُدْ لها لزوم في عيادتك.

الطبيب: ماذا تقصدين؟

الأم: أقصد أن مكانها الآن ليس هناك ... وأرجوك أن تنزعها من موضعها.

الطبيب: أنزعها؟ ... ولكنها جزء من حياتي!

الأم: حياتك الآن ليست في حاجة إليها ... ولكني أنا في حاجة إلى حفظ صورة بنتي المرحومة في مكان محترم ... ولا تجعلني أفصح أكثر من ذلك، واسمح لي أنصرف.

محمود: أتنصرفين؟ ... (يدنو سريعًا من أحد الأبواب الصغرى ويُنادي) يا إقبال ... يا إقبال.

إقبال (تأتي مُسرِعة)**:** أتذهبين هكذا سريعًا؟

الأم (تمدُّ يدها ثم تعانق إقبال مودِّعة)**:** نعم.

محمود (مادًّا لها يده)**:** مع السلامة يا تيزة.

(الأم تحيِّي محمود بإشارةٍ فاترةٍ سريعة دون أن تنظُر إليه وتخرج.)

إقبال (وهي تشيِّع الأم حتى الباب)**:** لا تبخلي بالزيارة ... سأزورك قريبًا.

محمود (ينظُر إلى المِرآة ويرتِّب شعره اللامع): فلتبخل بالزيارة ... فلتبخل ... بُخلها في هذا يُعتبر من الفضائل.

إقبال: تعود إليه، أرأيتَها؟

محمود (يلتفت إليها): أتدرين لماذا جاءت هذه العجوز الحَيزَبُون؟

إقبال (ناظرةً إليه مليًّا): الحَيزَبُون؟!

محمود: أيَحزُنكِ أن أقول ذلك؟ ... لستُ أدري والله سرَّ كل هذه الصداقة الجديدة التي تربطكما اليوم! ... (إقبال ترمُقه بالنظر) لماذا تنظرين إليَّ هذه النظرة؟

إقبال (في شِبه تهكُّم): أتُسمِّي حَيزَبُونًا أمَّ التي انتحرتْ من أجلك؟

محمود: في الجحيم أمُّها بعون الله ... ألأنَّ امرأةً انتحرتْ من أجلي أُصبح مُلزَمًا بسماع سخافات أمِّها؟

إقبال: ماذا قالتْ لك؟

محمود: إنها تخاطبني كما لو كانت حماتي ... لقد حمدتُ الله يوم ماتتْ أمُّكِ، فإذا حماةٌ أخرى تطلُع لي من تحت الأرض، حاسِبةً أن لها الحقَّ في أن تشتريني وتبيعني وتتصرف في شئوني الخاصة.

إقبال: أخبرني ... ماذا قالت؟

محمود (يتحرَّك ذاهبًا): ليس لديَّ الوقت ... (ينظُر إلى الساعة في مِعصمه) يا لَلْهول! ... من فضلكِ! ... موعد العيادة.

إقبال (تستوقفه إذ يُسرع إلى بَهْو الحلاقة): انتظر ... لي معك حديثٌ طويل.

محمود: لا طويل ولا قصير ... شغلي أهمُّ من كلام حضرتكِ.

إقبال: كلمة واحدة إذن.

محمود (ويده على الباب): مستحيل ... أمَا يكفيكِ الوقت الذي ضاع؟ ... أيُّ نهارٍ مشئوم أُنفق فيه ساعاتي مع العجائز؟!

إقبال: وأنا منهن؟!

محمود: لستُ أقول هذا ... بالضبط.

إقبال: يا لك من فاجر!...

محمود: علامَ الغضب يا سيدتي العزيزة؟

إقبال: لو تعلم كم أنت بغيضٌ إلى نفسي.

محمود: دلتْني التجارب يا عزيزتي أن المرأة إذا قالت أبغض فإنما تعني أحبَّ.

إقبال: قَطْع لسانك!

محمود: هذه الكلمة أيضًا ضمن الأدلة والبراهين أنَّ المرأة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر.

إقبال: حسْبُك أنت الذي تتبدَّل وتتغيَّر.

محمود: أنت واهمة ... إني ما تغيَّرتُ قَط ... إني دائمًا هكذا ... كنت أُهمل شأني قليلًا فيما مضى ... هذا كل ما في الأمر.

إقبال: كل ما في الأمر ... كلَّا ... هذا ليس كل ما في الأمر.

محمود: أَلَا تصدِّقين؟ ... شأنكِ إذن ... إني لست مُلزَمًا أنْ أُقنع الناس كافةً وأقيم الدليل للناس كافة! ... ومع ذلك لم أُصادف قَط أحدًا يستغرب الأمر ويُسمعني هذا الكلام البارد غيركِ أنتِ وغير تلك العجوز الخرقاء.

إقبال: لأن أحدًا غيرنا لا يعلم أنك جاوزت الخمسين.

محمود: قلتُ لكِ لا تَلفِظي هذه الكلمة ...

إقبال: المُخيفة!

محمود: أين لكِ العلم بأني جاوزتُ الخمسين؟ ... وهل قرأتِ بعينكِ شهادة ميلادي؟ ... إنَّ ورقة ميلادي مفقودةٌ منذ أمدٍ بعيد، ولقد بحثتُ عنها كي أثقُبَ بها عين مَن يتكلَّم هذا الكلام. ولكن من سوء الحظِّ ...

إقبال: قُل من حُسن الحَظ.

محمود: كلَّا ... من سوء الحظِّ أني لم أعثُر على شهادة ميلادي.

إقبال: إنك مع ذلك لستَ تجهل عمرك الحقيقي.

محمود: عمري الحقيقي نحو ٣٥ ... ٣٨ على الأكثر.

إقبال (تضحك): المغالطة لا تبلُغ بك هذا الحدَّ المُضحِك.

محمود: قولي ما شئتِ ... فليكُن عمري ٣٩! ... مبسوطة!

إقبال: أهذا ما تعتقد أمام ضميرك وأمام الله؟

محمود: لا تُدخلي الله والضمير في مثل هذه الأشياء، إني ما اقترفتُ جريمةً من الجرائم، وما خالفتُ قانون الله ولا قانون الضمير.

إقبال: وقانون السنِّ؟!

محمود: قانون ماذا؟

إقبال: قانون السنِّ والزمن.

محمود: من المغفَّل الذي قال إن لمثل هذه الأشياء قانونًا؟

إقبال: هذا المغفَّل الذي قال ذلك هو أنت ... ولا مؤاخذة.

محمود: أنا؟

إقبال: ألَا تذكُر المحاضرة التي كنتَ ستُلقيها؟

محمود: أعترف أنَّ العناية السماوية قد أنقذتْ سمعتي العلمية في الوقت المناسب، وحالتْ دون إلقاء تلك السخافة التي كنتُ أسمِّيها محاضرة.

إقبال: يا لَلْعَجب! أُشهد الله أنَّ كل هذا عجيب.

محمود: أَشهدي الله كما يحلو لكِ، لكنْ أعتقي رقبتي الآن ولكِ الأجر والثواب.

إقبال (تستوقفه إذ يتحرك ذاهبًا)**:** ابقَ هُنيهةً أخرى.

محمود: لا أستطيع ... المَرضى ينتظرون في العيادة.

إقبال: المَرضى (تضحك ساخرة).

محمود: بلا شكٍّ ... ومَن ذا ينتظر الطبيب غير المَرضى؟

إقبال: كلُّ هذه الأناقة، وكلُّ هذا التزيُّن والتصنُّع والأصباغ والعطور والمساحيق من أجل المَرضى؟

محمود: إني طبيبٌ رقيق الحاشية أحبُّ أن أُدخل السرور إلى قلوب مَرضَاي، وكلما كان الطبيب حَسَن المظهر والمنظر كان تأثيره في الشفاء أشدَّ وأفعل.

إقبال: هذا قانون جديد.

محمود: بلا شك ... (يتحرك) باي باي!

إقبال: قلتُ لك ابقَ هُنيهة.

محمود: أريد أن أُخاطب سالم الممرِّض في العيادة.

إقبال: أخبره أنك قدْ تتأخَّر قليلًا.

محمود (يتناول السماعة)**:** ألو ... ألو ... ٥٠٢٥٠، متشكِّر يا روحي وعقلي.

إقبال: روحك وعقلك؟!

محمود (يَغمِز بعين)**:** تلك عاملة التليفون.

(إقبال تهزُّ رأسها وتكظِم.)

محمود (في التليفون)**:** ألو ... العيادة، سالم ... هل عندك أحد؟ ... (ثم يخفض من صوته قليلًا حذِرًا من إقبال) افهم غرضي يا مغفَّل ... مَن؟ ... آه تذكَّرتُ، فلْتنتظر (يستدرك) أقصد فلْينتظر ... نَعَم سآتي بعد نصف ساعةٍ على الأكثر.

إقبال (وهي ناظرةٌ إليه حتى يضع السماعة)**:** مَن التي تنتظرك؟

محمود: وهو يتخايل بِهندامه في المِرآة، مريضةٌ شاحبةُ الوجه.

إقبال (تتنهَّد)**:** لا بدَّ أن تكون مريضةً بالقلب ... كلُّهُنَّ كذلك الآن.

(تنظر إليه نظرةً طويلة.)

محمود (يلتفت إليها)**:** لماذا ترمُقينني هكذا؟

إقبال (بعد صمتٍ، كالمخاطِبة نفْسَها)**:** إلهي ... إلهي ... أكلُّ هذا لأنَّ امرأةً انتحرتْ من أجله؟

محمود (باسمًا)**:** هذا ليس بالشيء القليل.

(يتحرك للذهاب.)

إقبال: محمود ... زوجي العزيز!

محمود: ماذا تريدين؟

إقبال: أريد أن أسألك سؤالًا.

محمود: إذا كان سؤالًا مهمًّا فأسرعي ... إنكِ تعلمين أنَّ وقتي ضيِّقٌ محدود.

إقبال: نعم ... سؤال غاية في الأهمية.

محمود: أسرعي إذن.

إقبال: هل تحبُّني؟

محمود: أهذا هو السؤال المهمُّ؟ ... آه ... يا للنساء ... يا للنساء!

إقبال: إني جادَّة يا محمود ... أريد الساعة أن أعلم منزلتي عندك ... أخبِرْني أيُّ مكانٍ لي الآن في هذا الزحام الذي يكتنفك من كلِّ جانب، ولا يكاد يُعرف له أولٌ من آخر؟

محمود (ضاحكًا)**:** الزحام!

إقبال: أتُعجبك الكلمة؟ ... نعم ... أخبِرْني، أين هو مكاني؟ ... إنَّ بي رغبةً في معرفة ...

محمود: مكانك في الزحام (يَلفِظ ضحكةً ضعيفة) موضوعٌ ننظُر فيه إن شاء الله عندما نخرُج من الزحام ... (يتحرك) إلى المُلتقَى ... باي باي!

إقبال: محمود ... انتظر.

محمود (في شيءٍ من الغضب)**:** كلَّا ... لن أنتظر ... لستُ أسمح لكِ بكلِّ هذا الوقت ... إنكِ لا تستحقين منِّي كلَّ هذا الوقت ... لقد بدأتِ تحرجين صدري.

إقبال: وإذا كنتُ أحبُّك يا محمود ... (محمود يهزُّ كتفَيه؛ فتقول في رجاء) لا تهزَّ كتفَيك.

محمود: حتى أنتِ ... وا عجباه ... حقًّا إنه لزحام ... إنَّ البيت هنا آوي إليه للراحة والاستجمام لا لسماع كلمات الحبِّ والغرام!

إقبال: يا لك من فاجر.

محمود: ما الذي جعلكِ تنطقين هذه الكلمات اليوم؟

إقبال: لستُ أدري.

محمود: ومنذ عامٍ مضى كنتُ أقول لكِ أحبكِ فتقولين احتشم فأنت كَهْل.

إقبال: أنت لست كَهْلًا.

محمود: أعلم ذلك ... ولستُ في حاجة إلى مثلكِ كي يُخبرني به.

إقبال: نعم ... لستَ في حاجة إلى مثلي الآن ... ولكنك مخطئٌ يا محمود ... لأني أحبُّك حقيقةً الآن حبًّا جديدًا لا علاقة له بالماضي ... إني لم أَعُدْ زوجتك فحسب، بل امرأة تحبُّك.

محمود: عجبًا ... عجبًا ... كل النساء يقُلنَ الآن هكذا ... لقد انقلبتْ كلُّ واحدة منكن جولييت ... حتى أنتِ المزهوَّة المتكبِّرة ... انظري إلى ماذا صرتِ.

إقبال: لا تهزأ بي ... إني أشدُّ حبًّا لك من أيَّة امرأة ... لأني لستُ أحبُّك لغاية ... ولست أُعجب بك لأن امرأةً انتحرتْ أو لم تنتحر من أَجلِك ... ولا لأنك أصبحتَ جميل المنظر قوي الثقة والإيمان بنفسك ... فلتعد كهْلًا تجِدْ إحساسي نحوك كما هو، لم يتغيَّر.

محمود (في رعب)**:** كلَّا ... كلَّا ... لستُ أريد أن أعود كهْلًا من أجل سوادِ عينَيكِ.

إقبال: كذلك أنا أشدُّ تألُّمًا من أيَّة امرأة ... لأني دانيةٌ منك وأنت لاهٍ عنِّي ... وكأنما أراك تَعتبرني شيئًا قديمًا متعلِّقًا بالماضي ولا صلةَ له بالحاضر ... إنك تُقصيني في قسوةٍ عن حاضرك السعيد؛ كأني أكبُرك بعشرين عامًا، وأنَّ زماني فات ولم يعُدْ يصلح لزمانك.

محمود: لقد قلتِ الحقيقة.

إقبال: هذا فظيع ما تتفوَّه به يا محمود ... أتراني كذلك حقًّا؟

محمود: أتريدين الصراحة؟ ... نعم ... إنَّ وجودك يذكِّرني بالهَرَم، ومَرآكِ وحديثُكِ وقربُكِ ينسج حولي جوًّا باردًا مُفعمًا برائحة الشيخوخة.

إقبال: إنك قاسٍ يا محمود.

محمود (ينظُر إلى الساعة في مِعصمه)**:** لا أستطيع أن أُصغى إليكِ أكثر من ذلك.
إقبال: إنك لا تتصوَّر فظاعة ما تقول.
محمود (يتمَلْمَل)**:** كفى؟! ... لقد مللتُ ... دعيني أغيِّر الجوَّ ... أف!

(يتحرك نحو الباب.)

إقبال: وأنا التي أُشفق أن أُفضي إليك بما يُؤلم نفسك، وأتردَّد وأُحجم عن إيذائك، مع أني أملِك. وفي يدي اليوم القنبلة التي تحطِّم هذا الشباب الزائف.
محمود: كفَى أيتها الحَيزَبُون.
إقبال (ترتعد)**:** ماذا تقول؟ ... (محمود يهزُّ كتفَيه ويمضي إلى الباب المؤدِّي إلى بَهْو الحِلاقة) أنا حَيزَبُون ... (محمود على وشك فَتْح الباب، فترفع إقبال رأسها وتَصيح به منفجِرةً) انتظر ... انتظر ... أيها المغفَّل الواهم والشيخ المتصابي، اسمع ما أقول، ولن أُحجم الآن عن الكلام.
محمود (يلتفت في تقطيب القلق)**:** تقولين ماذا؟
إقبال: إنَّ الفتاة لم تنتحر من أجلك.
محمود: أأنتِ مجنونة؟
إقبال: إنَّ زيزي انتحرتْ من أجل محمود سائق سيارتها.
محمود (في رِعدة)**:** سائق سيارتها؟
إقبال: هذه هي الحقيقة.
محمود: إقبال.
إقبال: ماذا دهاك؟
محمود: مزاحٌ سخيف!
إقبال: أرأيتَ كيف فعَلَ بك الخبر؟ ... كلَّا ... من سوء حظِّك لستُ أَمزح.
محمود (في صوتٍ متغيِّر)**:** مَن قال لكِ هذا الهُراء؟
إقبال: سائق سيارتها شابٌّ ... شابٌّ حقيقي، شابٌّ وسيمٌ اسمه محمود، وكانت تهتمُّ به، تحبُّه بلا شك ... ولكنه هرَبَ مع امرأةٍ أخرى ... فلَمْ تستطع احتمال الصَّدمة، وقرَّرت الانتحار.
محمود (مُطرِق)**:** مَن أخبرك بهذا؟
إقبال: أمُّها الساعة.

محمود (يرفع رأسه مُضطرِبًا): آه ... أمُّها العجوز المخرِّفة ... طبيعي.

إقبال: نَعَم، طبيعيٌّ جدًّا أنَّ فتاةً جميلةً تنتحر من أجل شابٍّ جميل، لا أن تنتحر من أجل كَهْل أشيب!

محمود (يجلس ويفكِّر مُطرِقًا): تريدين أن أصدِّق ذلك؟

إقبال: لا أُرغمك على أن تصدِّق الشيء المعقول، وهو أنها انتحرتْ من أجل محمود الشابِّ؛ سائق سيارتها الذي يُلازِمها في أكثر أوقاتها.

محمود (يرفع رأسه): ولماذا كانت تأتي إليَّ تُحدِّثني عن حبِّها لي؟

إقبال: أرادتْ ولا شكَّ الانتقام لكبريائها المجروحة ... أرادت أن تخون حبيبها الذي خانها بأسرع وقتٍ وبأسهل طريقة، لم تجِدْ أسهلَ منك؛ فهي تأتي إلى عيادتك كلَّ يوم.

محمود: كلُّ كلماتها الرقيقة كانت كاذبة. وكلُّ دموعها الحارَّة التي ذرفتْها أمامي كانت ...؟

إقبال: كانت لمحمود الآخر.

محمود (غير متمالِك): اخرسي!

إقبال (في تشفٍّ): كانت تحبُّه ... كان أولَ حبٍّ لها، ولكنه طعَنَها في حبِّها ... إنها تحبُّه دائمًا ... وأرادت أن تموت بعد أن علمتْ أنه يحبُّ غيرها، ولكن شعور المرأة المجروحة ثار ... ففكرت، ورأت أن تُشعره بأنها انتحرتْ من أجل شخصٍ آخر ... شخص له اسمه واحترامه في المجتمع ... إنها ذكية تلك الفتاة ... وفَّتْ لحبِّها العظيم بالموت في سبيله ... وانتقمتْ من حبيبها الخائن بإيهامه بأنها لم تنتحر من أجله ... ولعلها سارت معه إلى حدٍّ بعيد فغرَّر بها وبعفافها، وخافتْ من الافتضاح، وأرادتْ ستر أمرها بالزواج منك، فلما يئست انتحرت.

محمود: قصةٌ بارعة من نَسْج خيالِك ... قصة من صُنْع خيالِك المريض.

إقبال: هذه القصة كما تسمِّيها أقربُ إلى الحقيقة من أوهامك، بل إنها هي الحقيقة المُستتِرة، التي قد تنكشف لك ناصعةً لو أنك بحثتَ في أعماق نَفْسك.

محمود: خاب فَأْلُكِ أيتها المرأة ... إن كنتِ قد ظننتِ أنكِ بهذا الإفك تُلقين في صدري بُذور الشكِّ؛ فإنكِ قد فشلتِ فشلًا ذريعًا.

إقبال (ضاحكةً منتصرة): إني لم أنتصرْ في حياتي مثل انتصاري الآن ... حسبي وجهك الشاحب، وهذا الاضطراب في عينَيك وشفتَيك، كلُّ شيء فيك الساعة يَصيح ويصرخ بأنَّ الحقيقة قد وضحتْ أخيرًا لعينَيك الغافلتَين.

محمود: لستُ من السذاجة حتى أصدِّق هُراء امرأةٍ مثلكِ.

إقبال: وأنا أُقسم أنك في قرارةِ نَفْسك قد بدأتَ تصدِّق!

محمود (في غَيظٍ مكلوم)**:** خسئتِ!

إقبال (في انتصار)**:** تستطيع الآن أن تنصرف إلى مواعيدك إذا شئت، أكملْ لبْسَ ثيابك وزينتك، واذهب فقابِلْ مَن أردتَ أن تُقابل إذا استطعتَ ... إنك تشعر الآن في أعماق نفسك بأنك بنيتَ بناءً شامخًا على مجرد وَهْم، وأنَّ فتاةً مخبولة قد هزأتْ بك وخدعتْك وجعلتْك أضحوكةً في آخر حياتك ... إني حقًّا أخذتُ من وقتك أكثر ممَّا أستحقُّ ... إنك ولا شكَّ قد نسيتَ المنتظرات المريضات بقلوبهنَّ في العيادة ... تُرى ماذا هنَّ صانعات وقد شيَّدن آمالهنَّ فيك وإعجابهنَّ بك على مجرَّد وَهْم؟! ... ما كلُّ هذا الوجوم أيها الشابُّ! ... هَلمَّ إلى الزحام الذي ينتظر ... ليس لي أن أُبقيك أكثر من ذلك.

(تتحرك وترفع يدها بتحيةٍ ساخرة في الهواء.)

أورفوار! ... باي باي.

محمود (ينهض فجأة)**:** إفكٌ وزُور ... كذبٌ واختلاق! ... (يدنو من إقبال ويُمسك بذراعها) أتسمعين؟ ... هذا كذبٌ واختلاق.

إقبال (في ألَمٍ)**:** دعْ ذراعي!

محمود (يهزُّها هزًّا عنيفًا)**:** إنكِ امرأةٌ فاسدةُ النَّفْس، مريضةُ القلب ... موتورة!

إقبال (في ألَمٍ)**:** دعْني يا محمود ... أجُننت؟

محمود: مَن ذا يصدِّق هذا الهُراء؟ ... لن أصدِّق هذا الهُراء ... لن أصدِّق ... لن أصدِّق.

إقبال: دعْني ... اتركني ... أظافرك تُدمي جسدي.

محمود (يقذف بها إلى الأرض)**:** مزوِّرة! ... ملفِّقة! ... ساقطة!

(تقع إقبال على الأرض صارخة.)

الفصل الرابع

(عيادة الدكتور محمود عزمي كما ظهرتْ في الفصل الأول، غير أن الحُجْرة قد لبستْ حلةً من الأناقة تجعلها أقرب إلى حجرة مواعيد غرامية منها إلى حجرة طبيب. وفي صدر المكان ترى صورة كبيرة لعزيزة.)

(تدخل من أحد الأبواب سيدةٌ على شيءٍ من الأناقة والملاحة وهي تُسرع وتقتحم المكان، ويتبعها سالم الممرض كمَن يريد أن يحول بينها وبين الحُجْرة.)

سالم (وقد تأنَّق هو الآخر في ردائه الأبيض)**:** إنَّ الله مع الصابرين.
السيدة: إني صبرتُ ساعةً من الزمن، أهذه حجرته الخاصة؟
سالم: الدخول هنا ممنوع أثناء غَيبته.
السيدة: سأنتظره هنا.
سالم: أرجو أن تنتظري في حجرة الانتظار مع بقية السيدات.
السيدة: إني لستُ مثل الأخريات، سأنتظره هنا وحدي، برغم أنفك الدميم.
سالم: أنفي الدميم؟
السيدة: طبعًا ... أوَتحسب لك أنفًا أحسنَ من الأنف الروماني؟
سالم: ولماذا لا يكون أنفي أحسن من الأنف الرومي، حتى الأُنوف فيها بلدي ورومي.
السيدة (تضحك، ثم تخطو في الحُجْرة تتأملها)**:** ما أجملَ هذه الحُجْرة!
سالم: يا سيدتي أرجو أن تنتظري في حجرة الانتظار.
السيدة: سأنتظره هنا حتى يحضُر.
سالم: إنه لن يحضُر اليوم.

السيدة: وإذا أقسمتُ لك أنه سيحضُر؟

سالم: لن يحضُر.

السيدة: عندي دواءٌ مَن تعاطاه قال الصِّدق؛ (تُخرِج من محفظتها ورقةً ماليةً ذات جنيه) هذه الورقة.

سالم (صائحًا)**:** سيدتي.

السيدة: هذا لك ... قلْ لي الآن، أيحضُر اليوم كما أقسمتُ لك؟

سالم (في لهفة)**:** وهل يحنث قَسَمك يا سيدتي؟ ... سبحان الله ... إنكِ صادقةٌ مثل الجنيه المصري.

السيدة (أمام صورة عزيزة)**:** تتأمَّلها، أهذه صورتها؟

سالم: نعم يا سيدتي.

السيدة (تتأمَّلها)**:** فَمُها متَّسِع بعض الاتساع.

سالم: حقيقة ... ملحوظة في محلِّها.

السيدة: وأنْفُها لا يُعجبني.

سالم: نعم ... أنفها غير رومي!

(يسمع صوت الباب يُفتح.)

السيدة (تلتفت)**:** مَن ... أهو القادم؟

سالم (متوسِّلًا)**:** أتريدين أن أكون طوعَ أمرك؟ ... أرجو من سيدتي أن تنتظر هُنيهةً في الحُجْرة الأخرى حتى أذكُرك له وأمهِّد الأمر.

السيدة: إني أثِقُ بك.

سالم: نعم ... ثِقي بخادمكِ كلَّ الثقة.

(يقودها إلى الباب الذي دخلتْ منه، فتخرُج ويُغلِق البابَ خلفها ... يدخُل الدكتور محمود من بابٍ آخر.)

(محمود متغيِّر الوجه يجلس إلى مكتبه ويُطرِق في صمت.)

سالم (يدنو منه)**:** سيدي الدكتور.

محمود (بدون أن يرفع رأسه)**:** ماذا تريد؟

سالم (في اهتمام): السيدة حَرَم ...
محمود (مُقاطِعًا): لن أُقابِل أحدًا.
سالم (في شِبه همسٍ واحتجاج): إنها حضرتْ لأول مرة؛ كي ...
محمود (في شِدَّة): قلتُ لك لن أُقابِل أحدًا.
سالم (في دَهشةٍ وحيرة): عجبًا ... لن تقابل أحدًا! ... وماذا أقول لها؟!
محمود: إني مُنحرِف الصحة.
سالم (في تردُّد): ألها وحدها أم ...
محمود: للجميع.
سالم (في دهشة): جميع السيدات؟! ... (محمود مُطرِق لا يتحرك) ما الذي جرى؟
محمود: أَغلِق الباب ولا تفتحْ لأَحد.
سالم: أنعود إلى غَلْق الباب؟
محمود (مُنتهِرًا في شِدَّة): قلتُ لك أغلق الباب.
سالم: أَمْرُنا إلى الله ... سنُغلق بابَ رزْقِنا بأيدينا.
محمود: اتركْني وحدي.
سالم (يمضي وهو يخاطب نفْسَه): أتُرى مضتْ أيام العزِّ؟ ... (يخرج ثم يعود كمَن تذكَّر شيئًا) وإذا سألْنَ متى يستطعْنَ المقابلة؟
محمود: لن أرى أحدًا اليوم.
سالم: اليوم فقط؟
محمود (يضع كفَّه على جبينه): اليوم أريد الوَحْدة والهدوء التام ... سمعتَ؟
سالم (ناظرًا إليه): سيدي يبدو عليه حقيقةً ...
محمود: أعطني زجاجة الأثير.

(سالم يُشير برأسه علامةَ الطاعة ويخرج، ويلبث محمود كما هو ... ثم يرفع رأسه فجأةً بعد إطراق، وينهض مُحاوِلًا استعادة النشاط، لكنه يتَّجه إلى مكتبه ويجلس إليه، ويضع رأسه بين كفَّيه كمَن ينام، لكنه لا يستطيع، ويرفع رأسه ويحدِّق مليًّا في صورة عزيزة.)

سالم (يدخل بزجاجةٍ صغيرة في يده): زجاجة الأثير يا سيدي.

(جرَسُ الباب يُدقُّ ... سالم يخرُج مُسرِعًا ... الباب يُطرَق ... محمود لا يتحرك لكن أصابعه تعبث بزجاجة الأثير دون أن يستعملها.)

إقبال (من الخارج)**:** ماذا يفعل سيدك؟

(ثم تدخُل فإذا هي في ثيابٍ أنيقة وفي رشاقةٍ تذكِّر بمظهرها في الفصل الأول ... وقد بدتْ عليها النضارة والنشاط والابتهاج. محمود لا يلتفت إلى إقبال ولا ينقطع عن العبث بالزجاجة.)

إقبال (وقد اتَّخذ صوتُها وحركاتها مظاهر جديدة)**:** ليلتك سعيدة يا ... يا دكتور؟!

(محمود يرفع رأسه إليها ولا يُجيب.)

(في ابتسام) ألَا تردُّ التحية بأحسن منها يا دكتور؟

(محمود ينظر إليها ولا يُجيب.)

لماذا تنظُر إليَّ من قمة رأسي إلى كعب حذائي؟
محمود (في صوتٍ أجشَّ)**:** ماذا جئتِ تصنعين هنا؟
إقبال: مررتُ ببابك في طريقي إلى الخيَّاطة فقُلتُ أصعدُ لأطمئن على صحتك.
محمود: الخيَّاطة؟
إقبال (في ابتسامةِ خُبْثٍ وهي تخلع من يديها قُفَّازًا أنيقًا)**:** طبعًا يا عزيزي.

(محمود يعود إلى الإطراق والعبث بالزجاجة، وتنظر إقبال في مِرآةٍ كبيرة بالجدار في خُيلاء وهي تَصفِر بفمها بأنغامَ أغنيةٍ مرِحة.)

محمود (يرفع رأسه إليها في ضِيق)**:** ماذا جرى لكِ اليوم؟
إقبال (دون أن تترك المِرآة)**:** لا شيء ... إني دائمًا كذلك؟
محمود: دائمًا كذلك؟
إقبال: ماذا ترى فيَّ قد تغيَّر؟ ... (محمود ينظُر إليها في كَمَد ولا يُجيب) كنت أُهمل شأني قليلًا فيما مضى ... هذا كلُّ ما في الأمر.

(محمود لا يُجيب.)

إقبال: نعم ... قاتَلَ الله الوَهْم.

محمود (من بين أسنانه)**:** أيَّ وَهْم؟

إقبال: كنتُ أتوهَّم أني عجوز، وكنتَ تتوهَّم أنت أنك شابٌّ.

محمود: كنتُ أتوهَّم؟

إقبال: طبعًا ... لكن كل شيء لا يلبث أن يرجع إلى أصله، وها أنت في أربعٍ وعشرين ساعةً قد عادتْ إليك شيخوختُك المبجَّلة!

محمود: كفى.

إقبال: ها هي المِرآة، خذْ وانظرْ فيها.

(تفتح حقيبةَ اليد التي تحملها، وتُخرج مِرآةً صغيرة تدفعها إليه؛ فيأخذها ويُلقي بها وسطَ الحُجْرة في غيظ.)

وما ذنبُ المِرآة تحطِّمها؟

محمود: لديَّ عمل يا سيدتي ... لديَّ أعمال ... لا أستطيع أن أنفق الوقت في هذا الكلام الفارغ.

إقبال: خيرٌ لك أن تستريح من عناء الأعمال ... إنك مريض.

محمود: إني في أحسن حال.

إقبال: ظاهرٌ على وجهك الشاحب وجفونك الحمراء.

محمود: حمراء أو خضراء، ليس شأنكِ ... إني في خير حال.

إقبال: أُراهِن أنه ما غَمَض لك جَفن الليلة الماضية.

محمود: من قال لكِ ذلك؟ ... لقد نِمتُ ملءَ جفُوني.

إقبال: يا لَلْمكابَرة.

محمود: اذهبي لشأنكِ يا سيدتي ... ماذا يُهمُّكِ من أمري؟

إقبال: صدقت ... ليس يُهمُّني الآن من أمرك شيء.

(تسير في الغرفة ... تَصفِر بفَمِها في غير اكتراثٍ، فترى صورة عزيزة؛ فتلتفتُ إلى محمود المُطرِق.)

عجبًا ... هذه الصورة ما زالتْ هنا!

محمود (دون أن يتحرك)**:** لا شأن لكِ بها.

إقبال: إنك تُحسِن صُنعًا لو بحثتَ عن محمود السائق وأهديتَها إليه.
محمود: سأفعل.
إقبال: إنه هو وحده صاحب الحقِّ ولا ريب.
محمود: فلْيَكُن.
إقبال: نعم ... وهذه الفُرُش والرِّيَاش والوسائد الجديرة بوَكرٍ للمواعيد لا بعيادة طبيب! ... آنَ الأوان أن تُزيل كلَّ هذه الأساليب؛ فلقَدْ طالت المَهزَلة!
محمود: ألَا تُريدين أن تسكتي؟
إقبال: أعترف أني أخشى تهديدك، فلقَدْ كنتَ قاسيًا عليَّ بالأمس ... انظر ... تلك أظافرك التي أنشبتَها في عُنُقي.

(محمود لا يتحرك، ولا ينظر إليها.)

ولكنك معذور ... إنك في تلك اللحظة إنما كنتَ تذود عن كل شبابك الذاهب.
محمود: إنكِ تفترين كذِبًا ... ولن أصدِّق هذا الافتراء.
إقبال: لن تصدِّق؟
محمود: لا ... لن أصدِّق.
إقبال: إنك تصدِّق من أعماق نفسك، ولو لم تصدِّق لَمَا بدا عليك كلُّ هذا التغيُّر في أربعٍ وعشرين ساعة.
محمود (في غير اقتناع): أنتِ مُخطئة ... إني لم أتغيَّر.
إقبال: نبرات صوتك وحدها دليلٌ قاطع.
محمود (لا يتمالك ويصرُخ): اخرسي ... إني سئمتُ ولم أعُدْ أتحمَّل هذه الحماقات.
إقبال: هذه الحماقات ... هذا صحيح ... هدِّئْ رَوْعَك إذن.
محمود: إني هادئ الرَّوع على الرغم منكِ أيتها المرأة.
إقبال: ابتسم إذن واضحك وابتهج كما كنتَ تفعل بالأمس في الحمَّام.
محمود: لستُ أمتثل لأمر أَحد.
إقبال (تَصفِر وتُغنِّي): ألَا تريد أن تبتهج هكذا؟

(محمود يرمُقها في غيظٍ مكتوم.)

إقبال: شأنك إذن (تنظُر مرِحة إلى المِرآة في خُيلاء) أمَّا أنا فإني مبتهجة.

محمود (يرمُقها شزَرًا في صَمْت، ثم يقول): وعلامَ كل هذا الابتهاج اليوم؟
إقبال (تستدير إليه): وأنت علامَ كل هذا الحزن اليوم؟
محمود: مَن قال لكِ إني حزين؟
إقبال: أنت حزين حزنَ مَن عُثرَ على ورقة ميلاده المفقودة.

(تضحك عاليًا.)

محمود (يكظم غيظه سادًّا أذُنَيه): لا تضحكي هذه الضحكة في مقرِّ عملي.
إقبال: مقرُّ عملك مُقْفِر اليوم ... حقًّا هذا عجيب ... أين المَرضى! ... أين الزحام؟ ... آه ... ذهَبَت الأوهام ... تبدَّدت الأحلام!
محمود: هذه أمورٌ تعنيني وحدي.
إقبال (ساخرة): بالطبع (تنظر إلى الساعة في مِعصمها ساخرةً) ...

(جَرَس التليفون يدقُّ فوق المكتب.)

محمود (يرفع السماعة): ألو ... ليس هنا ... لا ... ليس هنا.

(يضع السماعة في الحال.)

إقبال (في تهكُّم): لماذا الكذب؟
محمود (في صوتٍ تَعِب): اسكتي ... ألَا تريدين أن تسكتي؟
إقبال (ناظرةً إلى وجهه): إنك في غاية التعب.
محمود (في تسليمٍ مُرغَمًا): نعم ... أريد قليلًا من الراحة.
إقبال: هذا ما نصحتُ لك به الساعة.
محمود: ينبغي أن أنقطع عن العيادة.
إقبال (في خبث): نعم ... بعض الوقت ... وتحتجب عن أعين الجميع.
محمود (يرفع رأسه): ماذا تقصدين؟
إقبال: ومع ذلك ليس هنالك ما يدعو في رأيي إلى ذلك ... إن الجميع ما زالوا يعتقدون أن الفقيدة انتحرت من أجلك، ومَن الذي يكشف لهم عن الحقيقة؟ ... من جهتي أنا يُمكنك أن تطمئن.
محمود: أرجو أن تكفِّي عن هذا الأسلوب الهازئ.

إقبال: إني جادَّة كلَّ الجِدِّ فيما أقول ... إني أرى في استطاعتك أن تستمرَّ في إيهام الناس، ولا تخشَ شيئًا، فإني أصمُتُ كالقبر.

(محمود ينظُر إليها!)

إقبال: لماذا تنظُر إليَّ هكذا؟ ... ألَا تراني جادَّة فيما أقول؟
محمود (ناظرًا إليها شزَرًا)**:** أستمرُّ في إيهام الناس؟
إقبال: ألَا تستطيع أن تُوهم الناس؟
محمود: كفاية!
إقبال: نعم ... فهمت ... صدقت ... الحقُّ معك.
محمود: ماذا فهمتِ؟
إقبال: فهمتُ أنك أنت الذي في حاجةٍ إلى هذا الوهم قبل كل الناس ... في حاجة إلى تلك الثقة بنفسك أولًا، ولكن أين لك ذلك الآن أيها المسكين؟ ... لقد كان حُلمًا جميلًا لبِثَ بضعة شهور ثم تكشَّفَ عن الحقيقة المُحزِنة.
محمود: قلتُ لكِ كفاية هذا الكلام الفارغ!
إقبال: هذا الكلام الفارغ أنت تعرف أنه هو الحقيقة.
محمود: لن أصدِّق حتى أرى بعيني محمود هذا.
إقبال: محمود الآخر؟ ... سائق سيارتها؟
محمود: وأخاطبه بنفسي.
إقبال: وتخاطبه؟
محمود: نعم ... حتى أرى بعيني الحقيقة!
إقبال: إنك تعذِّب نفسك بهذا الأمل الخادع.
محمود: مَن قال لكِ إني آمُل في شيء.
إقبال: فقدتَ كلَّ أمل ... إذن أنت تصدِّق ... فأيُّ معنًى إذن لبحثكَ عن محمود الآخر؟
محمود: مجرد حبِّ استطلاع ... لا غَير.
إقبال: وفِّر على نفسك مئُونة حبِّ الاستطلاع هذا، فإنَّ اليأس إحدى الراحتَين ... إني أنصح لك بمغادرة القاهرة زمنًا والذهاب إلى عِزبتك بالريف ... إنَّ مَن في سنِّك يُفيده كثيرًا الهواء النقي، ويُجدِّد قواه الهدوء وعيش المَزارع.
محمود: مَن في سنِّي؟!

إقبال (وهي تَخطِر أمام المِرآة): بلا شك ... مَن في سنِّك طبعًا.

محمود: وأنتِ؟

إقبال (تلتفت اليه سريعًا): وأنا ... ماذا تعني؟

محمود: ألَا تذهبين معي؟

إقبال (تعود إلى المِرآة وتُخرج من حقيبتها علبةَ مسحوقٍ أبيضَ، تَطلي نَحْرها مكان أظافرِ محمود): لا.

محمود: أأذهبُ وحدي؟

إقبال: أتُريد أن أترك خيَّاطتي وأذهب مع رَجُل؟

محمود: مع رَجلٍ مُسنٍّ ... قوليها ... قوليها.

إقبال: لا أستطيع أن أُقبِر نَفْسي في الريف قبل الأوان.

محمود: تُقبِرين نَفْسكِ معي؟

إقبال: أنت تعلم أني ما زلتُ في مُقتبَل العُمر ... ولو كانتْ في رأسك ذرةٌ من عقل لأيقنتَ أنَّ من المستحيل على امرأةٍ في مُقتبَل العمر أن تنغِّص راحتها مختارةً خمس دقائق من أجل مِثلك ... لكنك أعمى لا ترى نفسك ... ومغفَّل استطاعتْ فتاةٌ أن تلعب بك في الحياة وبعد الموت ... نعم ... انظر إلى أيِّ حدٍّ استطاع ميِّتٌ أن يلعب بحيٍّ ... لعِبتْ بك ... وجعلتْ نساء البلد يلعنْنَ بك ... كلُّ هؤلاء النساء إنما يأتينَ لمشاهدتك طبعًا كما يذهب الإنسان إلى حديقة الحيوانات لمشاهدة مخلوقٍ غريب.

محمود: أشكركِ.

إقبال: لستُ أقصد إهانتك، إنما أقصد فقط أن أنبِّهك إلى الحقيقة ... وهي أنك رَجلٌ قد فنِيَ وانتهى، وينبغي لعينَيك أن تُسدَّد جهة القبر ... انظر إلى وجهك ذي التجاعيد ... أيُّ امرأةٍ تُسرُّ لمنظرك وهي صادقةٌ مخلصة في هذا السرور؟

محمود: أي امرأة؟

إقبال: طبعًا ... ما من امرأة على هذه الأرض.

محمود: حتى أنتِ؟!

إقبال: نعم ... حتى أنا ... ما دمتَ تريد مني الصِّدق والصراحة ... فإني أقول لك أنا ككلِّ امرأة، لا يمكن أن أرى فيك غير شيخٍ مفروغٍ منه ... لأني لا أستطيع أن أُنكر الواقع ... ومن الحقائق ما لا يملك إنسانٌ جادٌّ إنكارها أو معارضتها ... وكذبت امرأةٌ قالتْ فيك غير ذلك.

محمود: حتى أنتِ؟

إقبال: قلتُ لك إني امرأةٌ ككلِّ النساء.

محمود: أنسيتِ ما أفضيتِ به إليَّ أمس؟

إقبال: كنتُ أخدعك بالألفاظ كما خدعتْكَ باقي النساء.

محمود (في مرارة)**:** حتى أنتِ تخدعين؟

إقبال: إني لستُ معصومة.

محمود: أوَلا يُحسُّ قلبك بحبٍّ لي إذن؟

إقبال: حبٌّ لك ... إنك تطلُب إلى المرأة المستحيل.

محمود: أنتِ تقولين هذا يا إقبال؟

إقبال: إني صريحة مع الأسف ... إني لأَعجب كيف يفكِّر في الحبِّ مَن في سنِّك.

محمود (يُطرِق)**:** تريدين أن أصدِّق أني انتهيتُ؟

إقبال: أَعجبُ لماذا تُريد أن أحبَّك اليوم، إلَّا أن تكون كالغريق تُريد أن تعتمد على أيِّ قلب ... ولكن حتى هذا القلب الواحد الذي بقِيَ لك في أفقِ الأمل؛ إنْ فتحتَه فلن تجِدَ فيه غير رمادٍ بارد، ولن يَقوى مثلُك اليوم على نفْخِ النار فيه.

محمود (في تعبٍ وقنوط)**:** أشكُرِك يا إقبال.

إقبال (وهي تتحرك للانصراف)**:** ألَا ترى معي أنَّ الكلام معك في الحبِّ موضوعٌ مضحِك؟!

محمود: مُضحِك؟!

إقبال: مُضحِك للغاية! ... ألَا ترى ذلك؟ ... (تنظُر في مِعصمها) الساعة الآن السادسة ... ينبغي لي أن أنصرف إلى ما هو أهمُّ ... خيَّاطتي تنتظر.

(تحمل حقيبةَ يدها تحت إبطها، وترتِّب هِندامها أمام المرآة.)

(تتحرك كي تنصرف. وقتَ خروجها تلتفت إلى الصورة.)

لا تنسَ إعطاءَ الصورة لصاحبها الحقيقي ... إلا إذا كنتَ لم تشبع من ابتسامتها الساخرة بك ... أورفوار.

(تضحك ضحكةً كبيرة، وتخرج بعد أن تُحيِّي محمود في حركةِ مزاحٍ ومَرَح.)

(محمود بلا حَراك!)

سالم (يدخل بعد لحظةٍ من خروج إقبال من العيادة): سيدي الدكتور! ... الحلَّاق حَضَر.

محمود (بدون أن يلتفت إليه): اذهب عنِّي ... اذهب عنِّي!

(يختفي سالم وهو قلِقٌ مندهِش، ثم يَظهر رأسُ سيدةٍ يُطلُّ من الباب الآخر.)

السيدة (يشجِّعها وجود الدكتور وحده فتدخل بغير إذن): أنت وحدَكَ يا دكتور؟ ... أتسمح؟

محمود (يرفع رأسه ناظرًا إليها): مَن أنتِ؟

السيدة: مُعجَبة ... أقصد مريضة!

محمود: تقولين مُعجَبة!

السيدة: بمهارتك الطبية طبعًا.

محمود: آه ... مهارتي الطبية!

السيدة: أنا ... متأسِّفة.

محمود: جئتِ اليوم هنا لأول مرةٍ فيما أَظُن.

السيدة (وهي تنظر إليه مليًّا كمَن تفحصه): نعم ... أول مرة.

محمود: لماذا تنظُرين إليَّ هكذا؟ ... تريدين أن تفحصيني؟

السيدة: أنت يا دكتور الذي يفحص.

محمود: اليوم لا أقابل أحدًا ... ألم يُخبرك الممرِّض؟

السيدة: ولماذا لا تقابل أحدًا؟

محمود: إني مُتعَب.

السيدة: حقيقةً يبدو عليك التعب ... ويحسُن أن أتركك بسرعة!

محمود (باهتمام): انتظري من فضلكِ ... أتلاحظين ذلك؟ ... إني متعب؟!

السيدة: من عينَيك ... نعم ... بالتأكيد ... أورفوار!

محمود: ماذا في عيني؟!

السيدة: حولَهما تجاعيدُ سوداء.

محمود: تجاعيد!

السيدة: أقصد ...

محمود: لا تحاولي التلطُّف ... يبدو في عينيكِ أنتِ أني خيَّبتُ ظنَّكِ ... كنتِ تعتقدين أني أصغرُ من ذلك سنًّا ... قولي بصراحة ... إني لا أغضب.

السيدة: حقًّا ... رأيتُ صورتك في إحدى المجلات ... وكنت تبدو ...

محمود: أصغر ممَّا أنا الآن؟

السيدة: المسألة على كل حال مسألةُ أذواق.

محمود: أذواق مَن؟

السيدة: أنتَ أدرى يا دكتور بالناس ... يُدهشني مع ذلك ما سمعت من بعضهم ... سمعتُ عنك من أكثر من سيدة ... شيء غريب ... شيء غريب حقًّا ... ما أكثر إشاعات المجتمع، وكلام الناس، واختراعات السيدات ... الحَبَّة يُعمل منها قُبَّة.

محمود: تقصدين أنها مبالغات.

السيدة: المجتمع دائمًا هكذا ... هذه ليست أول مرة.

محمود: الحَبَّة يُعمل منها قُبَّة ... والحَبَّة هي بالطبع أنا!

السيدة: لم أقُلْ ذلك يا دكتور.

محمود: المهم أنكِ كنتِ تتصوَّرينني غيرَ ذلك.

السيدة: حقيقي ... ولكن ... على كل حال ... لا داعي لإطالة الكلام الآن في موضوعٍ كهذا وأنت مُتعَب ... أورفوار يا دكتور!

محمود: لا أريد أن أُضيع وقتكِ معي ... ولكن لحظة واحدة! ... اسمحي لي بسؤال!

السيدة: لا تُحرجني يا دكتور ... يحسُن أن أنصرف الآن!

محمود: بهذه السرعة؟!

السيدة (تلتفت إلى الصورة)**:** مسكينةٌ هذه الشابة الصغيرة ... أهذا معقول؟ ... الدنيا مملوءة بالعجائب! ... أورفوار يا دكتور!

(تخرج بسرعة ... ويبقى محمود وحده مُطرِقًا جامِدًا بلا حَراك.)

محمود (مخاطبًا نفْسَه)**:** حقًّا ... أهذا معقول؟!

سالم (يدخل في تردُّد)**:** ما لها خرجتْ تجري كالمجنونة! ... هذه السيدة هي التي دخلتْ من نفسها يا سيدي الدكتور وأُقسم بالله! ... وقد أحسنتَ بطَرْدها.

محمود (كالمخاطِب نفْسَه)**:** أنا لم أطردْها ... هي التي هَربَتْ.

سالم: لم أعلمْ بأمرها والله إلا وهي خارجة.

محمود (هامسًا)**:** هَربَتْ منِّي! ... نعم هي التي هَربَتْ منِّي!

سالم: سيدي الدكتور يرى أني مُخطئ؟

محمود: لا ... اذهب أنت إلى عملك ... (ينهض متنهِّدًا) ولْأَعُد أنا أيضًا إلى عملي الأصلي!

(يتَّجه إلى الصورة وينتزعها، ويُلقي بها في عين النافذة التي انتحرتْ منها.)

(ستار)

هنـــداوي